تهذيب

الأخلاق

لابن عربي

تأليف

الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر سيدي
محي الدين بن عربي الحاتمي الطائي

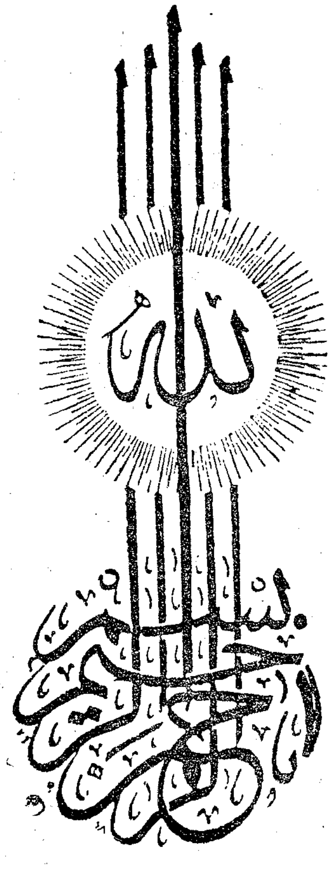
الطبعة الأولى

حققه وقدم له وصححه

عبد الرحمن حسن محمود

عفا الله عنه

عالم الفكر


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

تهـــذيب :

الأخلاق

لابن عربي

تأليف

الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر سيدي
محي الدين بن عربي الحاتمي الطائي

الطبعـة الأولى

حققه وقـدم له وصححه

عبد الرحمن حسن محمـود

عفـا اللـه عنـه

عالم الفكر

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم :

نحمد الله سبحانه وتعالى ، الذى وصف أكرم أنبيائه بأعظم الوصف وأكرمه فى غير ما آية من كتابه الكريم ، منها قوله تعالى : « **وإنك لعلى خلق عظيم** »

ومنها قوله تعالى :

« **ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر** »

ومنها قوله تعالى :

« **واخفض جناحك للمؤمنين** »

وهكذا فى القرءان الكريم آيات كثيرة : تحض على مكارم الأخلاق وتنهى عن سفسافها .

وكذلك ورد فى الحديث الشريف مالا يكاد يقع تحت حصر .

منها قوله صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه الحاكم ـ « إن الله يحب معالى الأخلاق ، ويكره سفسافها » .

وروى ابن السمعانى فى كتاب « أدب الاملاء » قوله صلى الله عليه وسلم :

« **أدبنى ربى فأحسن تأديبى** »

وروى أبو الشيخ رحمه الله تعالى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« **الخلق زمام من رحمة الله** »

وروى الطبرانى ، عنه صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

« الخلق الحسن يذهب الخطايا كما يذهب الماء الجليد ، والخلق السيىء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل »

.. ..

وبعد :

فقد كتب كثير من علماء المسلمين فى « الأخلاق » ، وما تؤدى اليه من نتائج ، وأوضحوها أبين إيضاح وأفضل بيان.

وممن كتب فى هذا المجال : الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى رحمه الله تعالى رحمة واسعة : كتابه هذا الذى نقدم له تلك المقدمة الصغيرة .

ونحن هنا لا نزكيه ، فإنه ـ كما يقولون ـ أشهر من نار على علم .

والذى يحتاج الى تزكية تكون فيه مادة النقص أوفر وأعلى من مادة الكمال .

وليس هو كذلك ، فإن فضله مشهور ، وعلمه غزير ، وكماله أوفر بكثير مما يتصور الناس .

إنه علم من أعلام الإسلام ، وإن أنكر هذا جاحدوه ، وشرق عند سماع اسمه شانئوه ، ورغم حسد الحاسدين وافتراء المفترين وكذب الكذابين وإفكهم .

ستلتقى الأعين أمام الله تبارك وتعالى ، ويتضح المكنون ، ويظهر المبطون ، فى اليوم الذى لا يغنى فيه المال ، ولا الدعاوى الكاذبة ـ يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ـ

هذا الكتيب ـ على صغره ـ جامع للأخلاق الحميدة ، وناه عن الأخلاق الذميمة ، بأسلوب المتمكن أمكن فى مادته

وعلمه ، اذ تحت كل كلمة من كلماته بحر من المعانى ، غـزير غوره ، بعيد ما بين شاطئيه .

سـلك فيه مسلكا فذا رائعا فى بيان كل خلق ، وأسـبابه ونتائجه فما ترك فيه خلقا حميدا إلا مجده ، ولا مسـلكا وضيعا الا هتكه وفضحه .

واستعمل ركيزة أهل العلم والتجربة والخبرة ، فإنه عمل رئيسا لديوان « الانشاء والرسائل » لبعض ملوك الأندلس .

• • • • • •

ذكر السيد / شكيب أرسلان فى كتابه « الحلل السندسية » هذا الكتاب باسم « الأخلاق » وذكر أنه ترجم الى اللغة التركية .

• • • • • •

والنسخة التى راجعنا عليها طبعت فى ٢ شعبان سنة ١٣٣٢هـ باسم « فلسفة الأخلاق » وجاء فى آخرها ما نصه :

« تم والحمـد لله على كل حال فى ٢ شـعبان سنة ١٣٣٢ هجرية ، على ذمة المتوكل على الله : « على محمد أبو طالب » الكتتبى بخان الخليلى بمصر .

وجاء فى أولهـا ترجمـة للشيخ الأكبر من صـفحتين ، حذفناهما لعدم الجدوى ، ولأنه من خصوصيات الطبعة الأولى ، وترجمة الشيخ رحمه الله تعالى مشهورة معروفة .

وكتب فى آخرها جملة حكم وآداب : التقطها الناشر من كتب الشيخ ، حذفناها أيضا لأننا لا نقصد غير الكتاب وحسب . وما كان دخيلا عليه لا شأن لنا به .

• • • • • •

وقد ذكر الشيخ رحمه الله تعالى فى آخر الكتاب اسمه ، بقوله : « وهذا حين نختم القول بـ « تهذيب لأخلاق » .

فلذلك آدرنا هـذه التسـمية .

ونسـأل الله تعالى أن يجعل عملنا هذا خالصا لوجهـه الكريم ، وأن يجزى الشيخ أفضل الجزاء عن الإسلام والمسلمين : إنه سـميع مجيب ؟

عبد الرحمن حسن محمود

الفقير الى عفو ربه تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا

اعلم ان الإنسان ـ من بين سائر الحيوان ـ ذو فكر وتمييز ، وهو أبدا يحب من الأمور : أفضلها ومن المراتب أشرفها ، ومن المقتنيات : أنفسها إذا لم يعدل عن التمييز فى اختياره ، ولم يغلبه هواه فى اتباع أغراضه

وأولى ما اختاره الإنسان لنفسه ، ولم يقف دون بلوغ غايته ، ولم يرض بالتقصير عن نهايته : تمامه وكماله (١) .

ومن تمام الإنسان وكماله : أن يكون مرتاضا (٢) بمكارم الأخلاق ، ومحاسنها ، ومتنزها (٣) عن مساويها ومقابحها ، آخذا فى جميع أحواله بقوانين الفضائل ، عادلا فى كل أفعاله عن طريق الرذائل ، فإذا كان ذلك كان واجبا على الإنسان ان يجعل قصده اكتساب كل شيمة (٤) سليمة من المعائب ، ويصرف همته إلى اقتناء كل خيم (٥) كريم ، خالص من الشوائب ، وأن يبذل جهده فى اجتناب كل خصلة مكروهة ردية ، ويستفرغ وسعه فى اطراح كل خلة مذمومة دنية ، حتى يحوز الكمال

---

(١) يعنى ينبغى للإنسان أن يبلغ غاية جهده فى تكميل نفسه والسعى بها إلى أعلى الدرجات جهد طاقته

(٢) يعنى مدربا على المكارم

(٣) تنزه عن الشىء : بعد عنه وأنفه .

(٤) الشيمة : الصفة

(٥) سجية وطبيعة .

بتهذيب خلائقه ، ويكتسى حلل الجمال بدمائه (١) شمائله ، ويباهى بحق أهل السؤدد والفخر ، ويلحق بالذرى (٢) من درجات النباهة والمجد .

إلا أن المبتدىء بطلب هذه المرتبة ، والراغب فى بلوغ هذه المنزلة ، ربما خفيت عليه الخلال المستحسنة ، التى يعنيه تحريها ، ولم تتميز له من المستقبحة التى غرضه توقيها

فمن أجل ذلك ، وجب أن نقول فى الأخلاق قولا نبين فيه :

ما الخلق ؟

وما علته ؟

وكم أنواعه ، وأقسامه ؟؟

وما المرضى منها المغبوط صاحبه والمتخلق به ؟

وما المشنو (٣) منها ، المقموت فاعله ، والمترسم به ؟

ليسترشد بذلك : من كانت له همة تسمو إلى مباراة أهل الفضل ، ونفس أبية ، (٤) تنبو عن مساواة أهل الدناءة والنقص ، وتدل أيضا على طريق الارتياض بالمحمود من أنواعه ، والتدرب به ، وتنكب المذموم منها وتجنبه ، حتى يصير المرتاض به ديدنا (٥) وعادة وسجية وطبعا ليهتدى به من

---

(١) سهولة الخلق

(٢) الذرى : بضم الذال وفتح الراء : من ذروة الجمل : أعلى مكان فيه .

(٣) المكروه منها .

(٤) نبا عن الشىء : بعد عنه .

(٥) الضمير راجع الى الخلق ، أى يصير الخلق الذى عود نفسه عليه : عادة له وطبيعة .

نشأ على الأخلاق السيئة وألفها ، وجرى على العادات الـردية وأنس بها

ونصف أيضـا الإنسان التـــام المهذب الأخلاق ، والمحيط بجميع المناقب الجميلة ، وطريقته التى يصل بها إلى التمام ، وتحفظ عليه الكمال ، ليشتاق إلى صورته (١) من تشـوق إلى الرتبة العليا ، ويحن الى احتذاء سيرته من استشرف الى الغاية القصوى .

وقد ينتبه بما نذكـره من كانت له عيـوب قد اشـــتبهت عليه ، وهو مع ذلك يظهر أنه فى غاية الكمال .

فإن من هذه حاله إذا تكرر عليه ذكر الأخلاق المكروهة ، تيقظ لما فيه من ذلك وأنف (٢) واجتهد فى تركه والتنزه عنه .

وكذلك إذا تصفح الأخلاق المحمودة ، من كان جامعـــا لأكثرها ، عادما لبعضها ، قدم إلى التخلق بذلك البعض الذى هو عادم له ، وتاقت نفسه الى الإحاطة بجميعها .

وقد ينتفع بما نذكره أيضا من كان فى غاية الكمال ، فإن المهذب الأخلاق الـكامل الآلات ، الجامع المحـــاسن ، إذا مر بسمعه ذكر الخلائق الجميلة ، والمناقب النفيسة ، ورأى أن تلك هى عاداته وســـجاياه ، كانت له بذلك لذة عجيبـــة ، وفرحة مبهجة ، كما أن الممدوح يسر إذا ذكر المادح نفسه ، ونشر فضائله .

وأيضا فإنه اذا وجد أخلاقه مدونة فى الكتب ، موصـوفة بالحسن ، كان ذلك داعيا الى الاستمرار على سيرته ، والإصرار على طريقته .

---

(١) أى إلى صورة الإنسان الكامل

(٢) أنف : تنزه عنه .

وهذا حين ابتدائنا بذكر الأخلاق فنقول :

« ان الخلق هو حال النفس ، بها يفعل الانسان أفعاله بلا روية ولا اختيار » .

والخلق قد يكون فى بعض الناس غريزة وطبعا ، وفى بعضهم لايكون الا بالرياضة والاجتهاد ، كالسخاء ، يوجد فى كثير من الناس من غير رياضة ، ولا تعمل ، وكالشجاعة والحلم والعفة والعدل ، وغير ذلك من الأخلاق المحمودة .

وكثير من الناس يوجد فيهم ذلك بالرياضة .

ومنهم من يبقى على عادته ، ويجرى على سيرته .

فصـــل

الأخـلاق المذمومة

فأما الأخلاق المذمومة ، فإنها موجودة فى كثير من الناس، كالبخل ، والجبن ، والظلم ، والشر .

فإن هذه العادات غالبة على أكثر الناس ، مالكة لهم .

بل قلما يوجد فى الناس من يخلو من خلق مـــكروه ، ويسلم من جميع العيوب .

ولكنهم يتفاضلون فى ذلك .

وكذلك فى الأخلاق المحمودة ، قد تختلف الناس ويتفاضلون، إلا أن المجبولين على الأخلاق الجميلة قليلون جدا .

وأما المجبولون على الأخلاق السيئة ، فاكثر الناس ، لأن الغالب على طبيعة الإنسان الشر .

وذلك أن الإنسان إذا استرسل مع طبعه ، ولم يسـتعمل : الفكر ، ولا التمييز ، ولا الحياء ، ولا التحفظ ، كان الغالب عليه أخلاق البهائم ، لأن الانســان انما يتميز عن البهائم بالفـــكر والتمييز .

فاذا لم يستعملها ، كان مشاركا للبهـــائم فى عاداتها ، والشهوات مستولية عليه ، والحيـــاء غائب عنـــه ، والغضب يستنفره ، والسكينة غير حاضرة له ، والحرص والاحقاد ديدنه ، والشر لا يفارقه .

فالناس مطبوعون على الأخلاق الردية ، منقادون للشهوات الدنية .

ولذلك وقع الافتقار الى الشرائع والسنن ، والسياسات المحمودة ، وعظم الانتفاع بالملوك الحسنى السيرة ، ليردعوا الظالم عن ظلمه ، ويمنعوا الغاصب عن غصبه ، ويعاقبوا الفاجر على فجوره ، فيقمعوا الجائر حتى يعود الى الاعتدال فى جميع أموره .

فالأخلاق المكروهة فى طباع الناس .

إلا أن فيهم من يتظاهر بها ، وينقاد لها ، وهم شرار الناس

وفيهم من ينتبه بجودة الفكر ، وقوة التمييز لقبحها ، فيأنف منها ، ويتصنع لاجتنابها ، وذلك يكون عن طبع كريم ونفس شريفة .

وفيهم من لا ينتبه لذلك ، الا أنه اذا نبه عليه أحس بقبحه ، فربما حمل نفسه على تركه

وفيهم من إذا انتبه لما فيه من النقائص ، أو نبه عليها ، ورام العدول عنها : تعذر عليه ذلك ، ولم يطاوعه طبعه ، وان كان مريدا للعدول عنها مجتهدا فى ذلك

وهذه الطائفة تحتاج أن ترشد الى طريق التدرب والتعمل للعادات المحمودة ، حتى يصير إليها على التدريج

ومن الناس من ينتبه للأخلاق الردية أو ينبه عليها ، فلا يحن إلى تجنبها ، ولا تسمح نفسه بمفارقتها ، بل يؤثر الإصرار عليها ، مع علمه برداءتها وقبحها

وهذه طائفة ليس إلى تهذيبها طريق ، الا بالقهر والتخويف والعقوبة ، إن لم يردعها الترهيب .

فصـــل
(فى الأخلاق المحمودة)

فأما الأخلاق المحمودة فإنها وإن كانت فى بعض النـــاس عزيزة ، فليست فى جميعهم ، وان الباقين قد يمكن أن يصيروا اليها بالتدرب والرياضة ، ويترقوا إليها بالاعتياد والألفة .

ومع هذا الحال فقد يكون فى الناس من لا يقبل طبعـــه العادات الحسنة ، ولا الخلق الجميـــل ، وذلك يكون لرداءة جوهره ، وخبث عنصره .

وهــذه الطـــائفة من جملة الأشـــرار ، الذين لا يرجى صلاحهم ، وكثير من الناس من يقبل كثيرا من الأخلاق المحمودة، وينبو طبعه عن بعضها ، وليس يعد هذا شريرا ، ولكن رتبتـه فى الخير بحسب محاسنه

فاما العلة الموجبة لاختـــلاف الأخـــلاق ، وهى النفس ، فللنفس ثلاث قوى ، وهى تسمى أيضا نفوسا .

وهى النفس الشهوانية ، والنفس الغضـــبية . والنفس الناطقة .

وجميع الأخلاق تصدر عن هذه القوى ، فمنها ما يختص بإحداهن ، ومنها ما يشترك فيه قوتان ، ومنها ما يشترك فيـه القوى الثلاث .

ومن هذه القوى ما يكون للانسان وغيره من الحيوان .

ومنها ما يختص به الانسان فقط .

فصــــل
(فى النفس الشهوانية)

أما النفس الشهوانية ، فهى للانســــان ولسائر الحيوان ، وهى التى يكون بهــا جميع اللذات والشهوات الجســـمانية ، كالإقدام الى المآكل والمشارب ، والمباضعة (١)

وهذه النفس قوية جدا ، متى لم يقهرها الانسان ، ويهذبها ملكته ، فاستولت عليه .

فاذا هى استولت عليــه خسر تهذيبها ، وصعب قمعهــــا وتذليلها .

فإذا تمكنت هذه النفس من الانسان وملكته ، وانقاد لها كان بالبهائم أشبه منه بالناس ، لأن أغراضه ومطلوباته وهمته تصير أبدا مصروفة الى الشـــهوات واللــذات فقط ، وهذه هى عادات البهائم .

ومن يكون بهذه الصفة ، يقل حياؤه ، ويكثر خرقه ، (٢) ويستوحش من أهل الفضل ، ويميل الى الخلوات (٣) وينقبض عن المجالس الحفلة (٤) ، ويبغض أهل العلم ، ويشنأ أهــــل الورع والنسك ، ويود أصحاب الفجـــور ، ويحب الفواحش ، ويكثر ذكرها ، ويلذ له استماعها ، ويسر بمعاشرة الســفهاء ، ويغلب عليه الهزل ، وكثرة اللهو .

وقد يصير من هذه حاله الى الفجور ، وارتكاب الفواحش ، والتعرض للمحظورات .

---

(١) المباضعة : كناية عن الجماع .

(٢) الخرق ، بفتح الخاء والراء : اذا عمل شيئا لم يرفق فيه .

(٣) المقصود بالخلوات هنا : أنه يبعد عن أهل الـــكمال وينعزل عنهم .

(٤) بفتح الحاء كسر الفاء : أى مجالس الجماعات .

وربما دعته محبة اللذات إلى اكتساب الأموال من أقبح وجوهها ، وربما حملته نفسه على الغضب والتلصص ، والخيانة ، وأخذ ماليس له بحق ، فإن اللذات لا تتم لا بالأموال والأعراض.

فمحب اللذة اذا تعذرت عليه الأموال من وجوهها ، جسرته شهوته على اكتسابها من غير وجهها .

ومن تنتهى به شهواته الى هذا الحد ، فهو أسوأ الناس حالا ، وهو من الاشرار ، الذين يخاف خبثهم ، ويستوحش منهم ، ويستروح الى البعد عنهم ، ويصير واجبا على متولى السياسات قمعهم وتأديبهم ، وابعادهم ونفيهم ، حتى لا يختلطوا بالناس ، فإن اختلاط من هذه صفته بالناس مضرة لهم ، وخاصة لاحداثهم ، فإن الحدث سريع الانطباع ، ونفسه مجبولة الى الميل الى الشهوات ، فإذا شاهد غيره مرتكبا لها ، مستحسنا للانهماك فيها ، مال هو أيضا الى الاقتداء به ، والى مساعدة لذته .

وأما من ملك نفسه الشهوانية وقهرها ، كان ضابطا لنفسه عفيفا فى شهواته ، محتشما من الفواحش ، متوقيا من المحظورات محمود الطريقة فى جميع ما يتعلق باللذات ، فالعلة الموجبة لاختلاف عادات الناس فى شهواتهم ولذاتهم ، وعفة بعضهم ، وفجور بعضهم ، هو اختلاف أحوال النفس الشهوانية ، فإنها اذا كانت مهذبة مؤدبة ، كان صاحبها عفيفا ضابطا لنفسه ، واذا كانت مهملة مرسلة ، مالكة لصاحبها : كان صاحبها : فاجرا شريرا .

واذا كانت متوسطة الحال ، كانت رتبة صاحبها فى العفة كرتبتها فى التأدب .

فمن أجل ذلك وجب أن يؤدب الإنسان نفسه الشهوانية ، ويهذبها حتى تصير منقادة له ، ويكون هو مالكها ، فيستعملها فى حاجاته التى لا غنى عنها ، ويكفها عما لا حاجة له اليه من الشهوات الردية ، واللذات الفاحشة .

فصـــل
(فى النفس الغضبيــة)

وأما النفس الغضبية ، فيشترك فيها أيضا الإنسان وسائر الحيوان .

وهى التى يـــكون بها : الغضب ، والجراءة ، ومحبـــة الغلبة .

وهذه النفس أقوى من النفس الشهوانية ، وأضر بصاحبها اذا ملكته وانقاد لها .

فإن الإنسان اذا انقاد للنفس الغضبية كثر غضبه ، وظهر خرقه ، واشتد حقده ، وعـدم حلمه ووقاره ، وقويت جراءته ، وأسرع عند الغضب الى الانتقام والايقاع بمغضــبه ، والوثوب على خصومه ، فأسرف فى العقوبة ، وزاد فى التشـــفى (١) فأكثر السب وأفحش فيه .

فإذا استمرت هذه العادات بالإنسان كان بالسباع أشـــبه منه بالناس .

وربما حمل قوما (٢) على حمل السلاح .

وربما أقدموا على القتل والجراح .

وربما وثبوا بالسلاح على إخوانهم ، وأوليائهم ، وعبيدهم، وخدمهم عند الغضب من اليسير من الأمور .

وربما غضب من هذه حاله ، ولم يقدر على الانتقـــام من خصمه ، فيعود بالضرر والسب والألم على نفسه .

---

(١) قال فى المصباح المنير : « واشتفيت بالعدو وتشفيت به من ذلك ، لأن الغضب الكامن كالداء ، فإذا زال بما يطلبـه الإنسان من عدوه فكأنه برىء من دائه .

(٢) مفعول لفعل محذوف تقديره : « حمل الغضب قوما» والله أعلم .

فمنهم من يلطم وجهه ، وينتف لحيته ، ويعض يده ، ويسب نفسه ، ويذكر عرضه .

وأيضا فإن من تملكه (١) النفس الغضبية يكون محبا للغلبة ، متوليا على من آذاه ، مقدما على كل من ناوأه ، طالبا للترأس من غير وجهه .

فإذا لم يتمكن من الرياسة من وجهها ، توصل إليها بالحيل الخبيثة ، فاستعمل كل ما يمكنه من الشر .

وهذه الأفعال تورط صاحبها ، وتوقعه في المهاوى والمهالك .

فإن من وثب على الناس ، وثبوا عليه ، ومن خاصمهم خاصموه ومن أقدم عليهم أقدموا عليه ، ومن تشرر عليهم قصدوه بالشر .

وربما تسفه الإنسان على خصمه ، وكان الخصم أسفه منه ، فإن ناله بسوء ، قابله ذلك بأكثر منه .

وقد يغلب على من هذه حاله : الحسد ، والحقد ، والقحة (٢) واللجاج (٣) ، والجور .

وقد يحمل هؤلاء محبة الغلبة وطلب الرياسة على اكتساب الأموال من غير وجهها ، وأخذها بالغلبة والظلم .

وربما قتلوا على محبة الغلبة من يناوئهم .

وربما فعلوا ذلك من غير روية ، فيئول الأمر بهم إلى البوار والاستئصال .

---

(١) بضم الكاف لأنها فى الأصل تتملكه .

(٢) القحة : بكسر القاف وفتحها .

(٣) فى المصباح « قال ابن فارس : اللجاج تماحك الخصمين ، وهو تماديهما »

فأما من ساس نفسه الغضبية ، وأدبها وقمعها : كان رجلا ، حليما ، وقورا ، عادلا ، محمود الطريقة .

فالعلة الموجبة لاختلاف عادات الناس فى غيظهم وسفاهة بعضهم ، هو اختلاف أحوال النفس الغضبية .

إذا كانت مذللة مقهورة : كان صاحبها حليما وقورا .

وإذا كانت مهملة ، مستولية على صاحبها ، كان صاحبها : غضوبا ، سفيها ، غشوما .

وإذا كانت متوسطة ، كان صاحبها متوسط الحال ، رتبته فى الحلم كرتبة نفسه الغضبية ، حتى تنقاد له فيملكها ويستعملها فى المواضع التى يجب استعمالها فيها .

فان لهذه النفس فضائل محمودة ، وذلك لأن الأنفة من الأمور الدنية ، ومحبة الرياسة الحقيقية ، وطلب المراتب العالية ، من الأخلاق المحمودة ، وهى فى أفعال النفس الغضبية .

فإذا ملك هذه بالتأديب والتهذيب ، واستعملها فى الأمور الجميلة ، وكفها عن الأفعال المكروهة ، كان حسن الحال ، محمود الطريقة .

فصل
(فى النفس الناطقة)

وأما النفس الناطقة ، وهى التى بها تميز الإنسان من جميع الحيوان .

وهى التى بها يكون الذكر (١) والتمييز ، والفهم .

وهى التى بها شرف الإنسان وعظمت همته ، فأعجب بنفسه .

وهى التى بها يستحسن المحاسن ، ويستقبح القبائح ، وبها يمكن الإنسان أن يهذب قوتيه الباقيتين ، وهما (٢) : الشهوانية والغضبية ، ويكفهما ويضبطهما وبها يفكر فى عواقب الأمور ، فيبادر باستدراكها فى أوائلها .

ولهذه النفس أيضا فضائل ورذائل .

أما فضائلها فباكتساب العلوم والآداب ، وكف صاحبها عن الرذائل والفواحش ، وقهر النفسين الآخرين ، وتأديبهما ، وسياسة صاحبهما فى معاشه ومكسبه ومروءته وتجمله ، وحث صاحبها على : فعل الخير ، والتودد ، والرقة ، وسلامة النية ، والحلم ، والحياء ، والنسك ، والعفة ، وطلب الرياسة من الوجوه الجميلة .

وأما رذائلها ، فالخبث : والحيلة ، والخديعة ، والملق (٣) والمكر ، والحسد ، والتشرر ، والرياء .

وهذه النفس هى لجميع الناس .

---

(١) بكسر الذال ، وسكون الكاف .

(٢) فى الأصل : وهى .

(٣) فى المختار : « ورجل ملق : يعطى بلسانه ما ليس فى قلبه » .

الا أن منهم من تغلب عليه فضـــائلها ، فيستحســــــنها ويستعملها .

ومنهم من تغلب عليه رذائلها فيألفها ويستمر عليها .

ومنهم من يجتمع فيه بعض الفضائل وبعض الرذائل .

وهذه العادات قد تكون فى كثير من الناس سجية وطبعــا لا بتكلف .

فأما المطبوع على العادات الجميلة ، فمنها ما يكون لقوة نفسه الناطقة عنصريا .

وأما المطبوع على العادات المكروهة ، فلضــعف نفســه الناطقة ، وسوء جوهره .

وأما الذى يجتمع فيه فضائل ورذائل ، فهو الذى تـكون نفسه الناطقة متوسطة الحال .

وقد يكتسب أكثر الناس هذه العادات ، وجميع الأخــلاق جميلها وقبيحها اكتسابا .

وذلك يكون بحسب منشىء الإنسان ، وأخلاق من يحيــط به ، ويشاهده ، ويقرب منه ، وبحسب رؤساء وقته ، ومن يشار إليه بالنباهة ، ويغبط على رتبتــــه فإن الحدث (١) الناشىء يكتسب الأخلاق ممن يكثر ملابسته ومخالطتـــه ، ومن أبويه ، وأهله وعشيرته .

فإذا كان هؤلاء سيئى الأخلاق مذمومى الطريقـــة ، كان الحدث الناشىء بينهم أيضا سيىء الأخلاق ، مكروه العادات .

وإذا لحظ الحدث أيضـــا أهل الرياسة ، ومن فـــوقه ، وغبطهم على مراتبهم : آثر التشبه بهم والتخلق بأخلاقهم .

---

(١) الصغير الناشىء .

فإذا كانوا مهذبى الأخلاق حسنى السيرة ، كان المتشبه بهم حسن الأخلاق مرضى الطريقة .

وإن كانوا أشرارا جهالا خرج الغابط لهم ، السالك طريقهم شريرا جاهلا .

وهذه حال أخلاق أكثر الناس ، فإن : الجهل ، والشر ، والخبث ، والشره والحسد ، غالب عليهم .

والناس بالطبع : يقتدى بعضهم ببعض ، ويحتذى التابع أبدا سيرة المتبوع .

واذا كان الغالب عليهم الشر والجهل ، كان واجبا أن لا يقتدى أحداثهم وأولادهم وأتباعهم بهم .

فالعلة الموجبة لاختلاف قوة النفس : اختلاف الناس فى سياساتهم وفضائلهم ، وغلبة الخير والشر عليهم ، من اختلاف قوة النفس الناطقة فيهم اذا كانت خيرة ، فاضلة ، قاهرة للنفسين الباقيتين ، كان صاحبها خيرا عادلا حسن السيرة ، واذا كانت شريرة ، خبيثة مهملة للنفسين الأخريين ، كان صاحبها شريرا خبيثا جاهلا .

فمن أجل ذلك ، وجب أن يعمل الانسان فكره ، ويميز أخلاقه ، ويختار منها ما كان جيدا مستحسنا جميلا ، وينفى منها ما كان مستنكرا قبيحا ، ويحمل نفسه على التشبه بالاخيار ويتجنب كل التجنب عادات الأشرار .

فانه اذا فعل ذلك صار بالانسانية متحققا ، وللرياسة الذاتية (١) مستحقا .

---

(١) الرياسة الذاتية : اى يترأس نفسه ويملكها ، ولاتملكه

فصــل
(فى أنواع الأخلاق وأقسامها)

فأما أنواع الأخلاق وأقسامها ، وما المســتحسن منها وما المستحب اعتياده ويعد فضائل ، وما المستقبح منها وما المـكروه ويعد نقائص ، ومعائب ، فهى الأنواع التى نحن واصفوها :

أما التى تعد فضائل ، فإن منها العفة ، وهى : ضـبط النفس عن الشهوات ، وقسرها على الاكتفاء بما يقيم أود الجسد ، ويحفظ صحته ، واجتناب السرف ، والتقصير فى جميع اللذات ، وقصد الاعتدال ، وأن يكون ما يقتصر عليه من الشـهوات على الوجه المستحب ، المتفق على ارتضائه ، وفى أوقات الحاجة التى لا غنى عنها ، وعلى القدر الذى لا يحتـاج الى أكثر منه ، ولا يحبس النفس والقوة أقل منه .

وهذه الحال هى غاية العفة .

ومنها القناعة ، وهى الاقتصار على ما سنح من العيش ، والرضى بما يسهل من المعاش ، وترك الحرص على اكتسـاب الأموال ، وطلب المراتب العالية ، مع الرغبـة فى جميع ذلك وايثاره والميل اليه ، وقهر النفس على ذلك ، والتمتع باليسير منه .

وهذا الخلق مستحسن من أوساط الناس وأصاغرهم .

وأما الملوك والعظماء فليس ذلك مستحبا منهم ، ولا تعـد القناعة من فضائلهم .

ومنها التصون ، وهو التحفظ من التبذل . فمن التصون : التحفظ من الهزل القبيح ، ومخالطة أهله ، وحضور مجالسه ، وضبط اللسان من الفحش ، وذكـر الخنا والقبيـح ، والمزاح السخيف ، وخاصة فى المحافل ، ومجالس المحتشمين .

ولا أبهة لمن يسرف فى المزاح ، ويفحش فيه .

ومن التصون أيضا الانقباض عن أدنياء الناس وأصاغرهم، ومصادقتهم ، ومجالستهم والتحرز من المعايش الردية ، واكتساب الأموال من الوجوه الخسيسة ، والترفع عن مسـئلة الحاجات للئام الناس وسفلتهم ، والتواضع لمن لا قدر له ، والاقلال من البروز من غير حاجة والتبذل بالجلوس فى الأسـواق وقوارع الطرق من غير اضطرار .

فإن الاكثار من ذلك مخل .

وأعظم الناس قدرا عند الخلق : من ظهر اسـمه وخفى شخصه .

وأما الحلم وهو ترك الانتقام عند شدة الغضب ، مع القدرة على ذلك ، وهذه محمودة ما لم تؤد الى ثلم (١) جاه أو فساد سياسة .

وهى بالرؤساء والملوك أحسن ، لأنهم أقدر على الانتقـام من مغضبيهم ، ولا يعد فضيلة : حلم الصغير عن الكبير : وان كان قادرا على مقابلته فى الحال .

فانه وان أمسك ، فانما يعد ذلك خوفا لا حلما .

ومنها الوقار ، وهو الإمساك عن فضول الكلام ، والعيب وكثرة الإشارة ، والحركة فيما يستغنى عن الحركة فيه ، وقلة الغضب ، والإصغاء عند الاستفهام ، والتوقف عند الجواب ، والتحفظ عن التسرع ، والمبادرة فى جميع الأمور .

ومن قبيل الوقار أيضا : الحياء ، وهـو غض الطـرف والانقباض عن الكلام حشمة للمستحيا منه .

---

(١) الثلم : الخلل

وهذه العادة محمودة ما لم تكن عن عى (١) ولا عجز .

ومنها : الود ، وهى : المحبة المعتدلة من غير اتباع الشهوة ، والود مستحسن من الإنسان إذا كان وده لأهل الفضل والنبل ، وذوى الوقار والأبهة ، والمتميزين من الناس .

وأما التودد إلى أراذل الناس وأصاغرهم ، والأحداث والنسوان ، وأهل الخلاعة ، فمكروه جدا .

وأحسن الود ما ينتجه بين متآلفين : مناسبة الفضائل ، وهو أوثق الود ، وأثبته .

وأما ما كان ابتداؤه اجتماعا على هزل أو لطلب لذة ، فليس هو محمودا ، وليس بباق ، ولا ثابت .

ومنها : الرحمة ، وهو خلق مركب من الود والجزع .

والرحمة : لا تكون إلا لمن ظهر منه لراحمه خلة مكروهة .

إما نقيصة ، وإما محنة عارضة .

فالرحمة هى محبة للمرحوم ، مع جزع من الحال التى من أجلها رحم .

وهذه الحال مستحسنة ، ما لم تخرج بصاحبها عن العدل ، ولم تنته به إلى الجور ، وإلى فساد السياسة ، فليس بمحمود رحمة القاتل عند القود ، والجانى عند القصاص .

ومنها : الوفاء ، وهو الصبر على ما يبذله الإنسان من نفسه ، ويرهن به لسانه ، والخروج مما يضمنه ، وان كان مجحفا به ، فليس يعد وفيا من لم يلحقه بوفائه أذية وإن قلت . وكلما أضر به الدخول تحت ما يحكم به على نفسه ، كان أبلغ فى الوفاء .

---

(١) العى : بكسر العين : عدم الاهتداء للوجه الذى يريده والعى ضد البيان .

وهذا الخلق محمود ، ينتفع به جميع الناس .

فإن من عرف بالوفاء ، كان مقبول القول ، عظيم الجاه ، إلا أن انتفاع الملوك بهذا الخلق ، أكثر ، وحاجتهم اليه أشد .

وأنه متى عرف منهم قلة الوفاء ، لم يوثق بمواعيدهم ، ولم تتم أغراضهم ، ولم يسكن إليهم جندهم وأعوانهم .

ومنها أداء الأمانة ، وهو التعفف عما يتصرف الانسان فيه من مال وغيره ، وما يوثق به وعليه من الأعراض ، والحرم (١) مع القدرة عليه ، ورد ما يستودع إلى مودعه .

ومنها : كتمان السر .

وهذا الخلق مركب من الوقار ، واداء الأمانة .

فإن إخراج السر من فضول الكلام .

وليس بوقور من تكلم بالفضول .

وأيضا ، فكما أن من استودع مالا فأخرجه الى غير مودعه ، فقد خفر الأمانة ، كذلك من استودع سرا فأخرجه إلى غير صاحبه ، فقد خفر الأمانة (٢) .

وكتمان السر محمود من جميع الناس ، وخاصة ممن يصحب السلطان ، فإن إخراجه أسراره ـ مع أنه قبيح ـ يؤدى إلى ضرر عظيم ، يدخل عليه من سلطانه .

ومنها : التواضع ، وهو ترك الترأس ، وإظهار الخمول ، وكراهية التعاظم والزيادة فى الإكرام ، وأن يتجنب الإنسان

---

(١) الحرم : بضم الحاء وفتح الراء .
(٢) خفر الأمانة : اضاعها

المباهاة بما فيه من الفضائل والمفاخرة بالجاه والمال ، وأن يتحرز من الإعجاب والكبر .

وليس يكون حسن التواضع إلا فى أكابر الناس ورؤسائهم ، وأهل الفضل والعلم .

وأما سوى هؤلاء ، فليس يكونون متواضعين ، لأن الضعة هى محلهم ورتبتهم ، فهم غير متضعين (١) لها .

ومنها البشر (٢) وهو إظهار السرور بمن يلقاه الإنسان من إخوانه وأودائه وأصحابه وأوليائه ومعارفه ، والتبسم عند اللقاء .

وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس ، وهو من الملوك والعظماء أحسن .

فإن البشر فى الملوك يتألف به قلوب الرعية والأعوان والحاشية ، ويزداد به تحببا إليهم .

وليس سعيدا من الملوك من كان متبغضا إلى رعيته .

وربما أدى ذلك إلى فساد أمره ، وزوال ملكه .

ومنها : صدق اللهجة ، وهو الإخبار عن الشىء على ما هو به .

وهذا الخلق مستحسن ، ما لم يؤد إلى ضرر مجحف ، فإنه ليس بمستحسن صدق الإنسان إن سئل عن فاحشة كان ارتكبها ، فإنه لا يفى حسن صدقه بما يلحقه فى ذلك من العار والمنقصة الباقية اللازمة .

---

(١) لأن هناك فرقا بين المتواضع من الرفعة ، والوضيع بطبعه .

(٢) بكسر الباء وسكون الشين .

وكذا ليس يحسن صدقه متى سئل عن مستجير استجاره فأخفاه ، ولا إن سئل عن جناية متى صدق عنها عوقب عليها بعقوبة مؤلمة .

والصدق مستحسن من جميع النـــاس ، وهو من الملوك والعظماء أحسن ، بل لا يسعهم الكذب ، ما لم يعد الصدق عليهم بضرر .

ومنها سلامة النية ، وهو اعتقاد الخير لجميع النـاس ، وتجنب : الخبث (١) والغيبة ، والمكر ، والخديعة .

وهذا الخلق محمود من جميع الناس ، إلا أنه ليس يصلح للملوك التخلق به دائما ، ولا يتم الملك إلا باستعمال المكر والحيل والاغتيال مع (٢) الأعداء .

ولكن لا يحسن بهم استعماله مع أوليائهم ، وأصفيائهم ، وأهل طاعتهم .

ومنها الســخاء ، وهو : بذل المـــال من غير مســـئلة ولا استحقاق ، وهذا الفعل مستحسن ، ما لم ينته إلى السرف والتبذير ، فإن بذل جميع ما يملك لمن لا يستحقه ، لم يســـم سخيا ، بل يسمى مبذرا مضيعا .

والسخاء فى سائر الناس فضيلة مستحسنة ، فأما فى الملوك فأمر واجب ، لأن البخل يؤدى إلى الضرر العظيم فى ملكهم ،

---

(١) بضم الخاء وسكون الباء .

(٢) ذلك لأن العدو إن لم تمكر به مكر بك ، وإن لم تغتله اغتالك ، ولكن يجب ان تعلم أنه ليس بين المسلمين عداوة ، وحروب هذه الأيام من المسلمين بعضهم مع بعض حروب جاهلية وكفر والله أعلم .

والسخاء والبذل يرتهن به قلوب الرعيــة والجنـــد والأعوان ، فيعظم الانتفاع به .

ومنها الشجاعة ، وهو : الإقدام على المكاره والمهـــالك ، عند الحاجة إلى ذلك ، وثبات الجأش عند المخاوف ، والاستهانة بالموت .

وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس ، وهــو بالملوك وأعوانهم أليق وأحسن ، بل ليس بمستحق للملك من عدم هذه الخلة .

وأكثر الناس أخطارا وأحوجهم الى اقتحام الغمرات ، هم الملوك ، فالشجاعة من أخلاقهم الخاصة بهم .

ومنها المنازعة ، وهو منازعة النفس فى التشبه بالغير فيما يراه له وهو يرغب فيه لنفسه ، والاجتهاد فى الترقى إلى درجة أعلا من درجته .

وهذا الخلق محمود إذا كانت المنافســة فى الفضــائل والمراتب العالية ، وما يكسب مجدا وسؤددا ، فأما فى غير ذلك من اتباع الشهوات ، والمباهاة باللذات ، والزينة ، والبزة (١) فمكروه جدا .

ومنها : الصبر عند الشدة .

وهذا الخلق مركب من : الوقار والشجاعة .

ومستحسن جدا : ما لم يكن الجزع نافعـــا ، ولا الحزن والقلق مجديا ، ولا الحيلة والاجتهاد دافعة ضرر تلك الحالة . وما أقبح الجزع اذا لم يكن مفيدا (٢) .

---

(١) بكسر الباء وفتح الزاى المشددة : الهيئة .

(٢) الجزع المفيد : ان لا يقدم الإنسان على الشىء إلا إذا تدبر عواقبه ، فإن رآه خيرا اقدم ، والا أحجم .

ومنها عظمة الهمة ، وهو : استصغار ما دون النهـاية من معالى الأمور ، وطلب المراتب السامية ، واستحقار ما يجود به الإنسان عند العطية ، والاستخفاف بأوسـاط الأمور ، وطلب الغايات ، والتهاون بما يملكه ، وبذل ما يمكنه لمن يسأله ، من غير امتنان ولا اعتداد به .

وهذا الخلق من أخلاق الملوك خاصة .

وقد يحسن بالرؤساء والعظماء ، ومن تسمو نفسـه إلى مراتبهم .

ومن عظم الهمة : الأنفة ، والحمية (١) والغيرة . والأنفة هو : نبو النفس عن الأمور الدنية .

والحمية ، والغيرة جميعا هما : الغضب عند الإحسـاس بالنقص .

وإنما يلحق الإنسان الغيرة على الحرم ، لأن فى التعرض لهن عارا ومنقصة ، فإن المتعرض للحرم مهتضم لصـاحبهن ، ومتصرف فى حق له .

والاهتضام : نقيصة .

ومن عظم الهمة الأنفة من الاهتضام (٢) ، ودخول النقص

وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس .

ومنها العدل : وهو التوسـط اللازم للاستواء ، وهـو استعمال الأمور فى مواضعها وأوقاتها ، ووجوهها ومقاديرها ، من غير سرف ولا تقصير ، ولا تقديم ولا تأخير .

---

(١) بفتح الحاء ، وكسر الميم ، وتشديد الياء المفتوحة .
(٢) اهتضمه : ظلمه حقه .

فأما الأخلاق الردية التى تعد نقائص ومعايب ، فإن منها : الفجور ، وهو الانهماك فى الشهوات ، والاستكثار منها ، والتوفر على اللذات ، والإدمان عليها ، وارتكاب الفواحش ، والمجاهرة بهــــا .

وبالجملة : السرف فى جميع الشهوات .

وهذا الخلق أبدا يهدم الحياء ، ويذهب مـــــاء الوجه ، ويخرق حجاب الحشمة .

ومنها الشره ، وهو : الحرص على اكتساب الأموال وجمعها وطلبها من كل وجه ، وإن قبح التعسف فى اكتسابها ، والمكالبة عليها ، والاستكثار من القنية (١) وادخار الأعراض (٢)

وهذا الخلق مكروه فى جميع الناس ، إلا من الملوك ، فإن كثرة الأموال والذخائر والأعـــــراض تعين على الملك ، وتــزين الملوك ، وتزيدهم هيبة فى نفوس رعيتهم ، وأعوانهم ، وأعاديهم وأضدادهم .

ومنها التبذل ، وهو : اطراح الحشمة ، وترك التحفظ عن الهزل واللهو ، ومخالطة السفهاء ، وحضور مجالس الســـخف والهزل والفواحش ، والتفوه بالخنــــا ، وذكر الأعراض (٣) والمزح ، والجلـــوس فى الأســـواق ، وعلى قـــوارع الطرق ، والتكسب بالمعاش الردىء ، والتواضع للسفلة .

وهذا الخلق قبيح بجميع الناس .

ومنهـــا السفه ، وهو ضـــد الحلم ، وهو ســـرعة الغضب والطيش ، من يسير الأمور ، والمبادرة فى البطش والإيقـــاع

---

(١) أى يكثر الانسان من أقتناء الأشياء للحرص .
(٢) الأعراض جمع : عرض بفتح العين والراء .
(٣) يعنى بالسوء .

بالمؤذى ، والسـرف فى العقوبة ، وإظهـار الجَزع من أدنى ضرر ، والسب الفاحش .

وهذا الخلق : مستقبح من كل أحد ، إلا أنه من الملـوك والرؤساء اقبح .

ومنها الخرق (١) وهو كثرة الكلام والتحرك من غيـر حاجة ، وشدة الضحك ، والمبادرة الى الأمـور من غير قف ، وسرعة الجواب .

وهذا الخلق مستقبح من كل أحد .

وهو بأهل العلم وذوى النباهة : أقبح .

ومن قبيل الخرق القحة ، وهو : قلة الاحتشام ، لمن يجب احتشامه ، والمجاهرة بالجوابات الفظة المستشنعة .

وهذا الخلق مكروه ، وخاصة بذوى الوقار .

ومنها العشق ، وهو إفراط الحب ، والسرف فيه .

وهذا الخلق مكروه على جميع الاحوال ، الا ان أقبحـه وأشره : ما كان مصروفا الى طلب اللذة ، واتباع الشهوة الردية .
وقد يحمل صاحبه على الفجور وارتـكاب الفواحش ، وكثرة التبذل ، وقلة الحياء ، ويكسبه عادات ردية ، وهو بكل أحد قبيح ، الا أنه بالأحـداث ، والمترفهين والمتنعمين : أقـل قبحا .

ومنها القسـاوة ، وهو : خلق مـركب من : البغض ، والشجاعة .

والقساوة هو : التهاون بمـا يلحق الغير من الألم والأذى

---

(١) بفتح الخاء والراء .

وهذا الخلق مكروه من كل أحد ، إلا من الجندى وأصحاب السلاح والمتولين الحروب ، فإن ذلك غير مكروه منهم إذا كان فى موضعه .

ومنها الغدر ، وهو : الرجوع عمـــا يبذله الإنســـان من نفسه ، ويضمن الوفاء به ، وهذا الخلق مســتقبح ، وإن كان لصاحبه فيه مصلحة ومنفعة ، وهو بالملوك والرؤســـاء أقبح ، وبهم أضر ، فإن عرف من الملك الغدر لم يسكن إليه أحد ، ولم يثق به ، وإذا لم يسكن إليه : فسد نظام ملكه .

ومنها : الخيانة ، وهو الاستبداد بما يؤمن الإنســــان عليــه من الأموال والأعراض والحرم (١) وتملك ما يستودع ، ومجاهدة مودعه .

ومن الخيانة أيضا طى الأخبار إذا بدت مصلحة لتأديتها ، وتحريف الرسائل اذا تحملها وصرفها عن وجهها .

وهذا الخلق ـ أعنى الخيانة ـ مكروه من جميع الناس ، يثلم الجاه ، ويقطع وجوه المعايش .

ومنها إفشاء السر .

وهذا الخلـــق مركب من الخرق والخيـــانة ، فإنه ليس بوقور من لم يضبط لسانه ، ولم يتسع صدره لحفظ ما يستسر له .

والسر أحد الودائع ، وافشاؤه نقيصة على صــاحبه فالمشى للسر : خائن .

وهذا الخلق قبيح جدا ، وخاصة ممن يصحب الســـلاطين ويداخلهم .

---

(١) جمع حرمة .

ومن قبيل إفشاء السر : النميمة ، وهو ان يبلغ انسانا (١) عن آخر قولا مكروها .

وهذا الخلق : قبيح جدا .

وإن لم يستسر ايضا بما يسمعه أو يبلغه ، فنقله إلى من يكرهه : قبيح ، لأن فى ذاك ايقاع وحشة بين المبلغ والمبلغ عنه .

وذلك غاية التشرر .

ومنها : الكبر ، وهو استعظام الإنسان بنفسه ، واستحسان ما فيه من الفضائل ، والإستهانة بالناس ، واستصغارهم ، والترفع على من يجب التواضع له .

وهذا الخلق : مكروه ضار لصاحبه ، لأن من أعجبته نفسه ، لم يستزد من اكتساب الأدب .

ومن لم يستزد بقى عليه نقصه .

فإن الإنسان ليس يخلو من النقص ، وقلما ينتهى إلى غاية الكمال .

وأيضا فإن هذا الفعل يبغضه إلى الناس ، ومن أبغضه الناس ساءت حاله .

ومنها العبوس ، وهو التقطيب عند اللقاء ، وقلة التبسم ، وإظهار الكراهية .

وهذا الخلق مركب من : الكبر ، وغلظ الطبع .

فان قلة البشاشة ، هى : الاستهانة بالناس، والاستهانة بالناس تكون من الإعجاب والكبر .

وقلة التبسم أيضا - وخاصة عند لقاء الإخوان - يكون من غلظ الطبع ، وهذا الخلق مستقبح وخاصة بالرؤساء والأفاضل

---

(١) مفعول لفاعل مقدر .

ومنها : الكذب ، وهو : الاخبار عن الشىء بخلاف ما هو عليه .

وهذا الخلفق : مكروه ، ما لم يكن لدفع مضرة ، لا يمكن أن تدفع إلا به ، واجترار نفع لا غنى عنه ، ولا يوصل إليه الا به .

فإن الكذب عند ذلك ليس بمستقبح ، وانما يستقبح الكذب إذا كان عبثا ، ولنفع يسير لا خطر له ، لا يفى بقباحة الكذب .

والقبح بالملوك والرؤساء أكثر ، لأن اليسير من النقص يشينهم .

ومنها : الخبث ، وهو إضمار الشر للغير ، واظهار الخير له ، واستعمال : الغيلة (١) ، والمكر ، والخديعة فى المعاملات

وهذا الخلق : مكروه من جميع الناس ، إلا من الملوك والرؤساء ، فإنهم إليه مضطرون ، واستعمالهم إياه مع أضدادهم وأعدائهم لايستقبح .

فأما أوليائهم وأصحابهم ، فإنه غير مستحسن .

ومن قبيل الخبث : الحقد ، وهو إضمار الشر للجانى إذا لم يتمكن من الانتقام منه ، فأخفى تلك الأحقاد إلى وقت امكان الفرصة .

وهذا الخلق : من أخلاق الأشرار ، وهو مذموم جدا .

ومنها البخل ، وهو منع المسترفد (٢) مع القدرة على رفده .

---

(١) الغيلة : بكسر الغين : الاغتيال ، والخداع .

(٢) المسترفد ـ بالفاء : من يطلب منك الرفد ـ بكسر الراء المشددة ، أى العطاء . والله تعالى أعلم .

وهذا الخلق : مكروه من جميع الناس ، إلا أنه من النساء كمال (١) .

وأما سائر الناس ، فإن البخل : يشينهم ، وخاصة الملوك ، والعظماء ، فإن البخل يغض منهم أكثر مما يغض من الرعية والعوام ، ويقدح فى ملكهم ، لأنه يقطع الأطماع منهم ، ويبغضهم إلى رعيتهم .

ومنها : الجبن ، وهو الجزع عند المخاوف ، والإحجام عما تحذر عاقبته ولا تؤمن مغبته (٢) .

وهذا الخلق : مكروه من جميع الناس ، الا أنه بالملوك والجند وأصحاب الحروب : أضر .

ومنها الحسد ، وهو : التألم بما يراه الإنسان لغيره من الخير ، وما يجده فيه من الفضائل ، والاجتهاد فى إعدام ذلك الغير ما هو له .

وهذا الخلق : مكروه ، وقبيح بكل أحد .

ومنها الجزع عند الشدة ، وهذا الخلق مركب من الخرق والجبن .

وهو يستقبح اذا لم يكن مجديا ولامفيدا ، فأما إظهار الجزع لتعمل حيلة بذلك عند الوقوع فى الشدة ، واستغاثة مغيث ، أو اجتلاب معين ، فيما تغنى فيه المعاونة ، فغير مكروه ، ولايعد نقيصة .

---

(١) لأن المرأة اذا أعطت كل من طلب خربت بيت زوجها ، مع انها مقيدة برضا الزوج ، لأن ما تعطيه ملكه هو ، لا هى : فتصرفها ـ اذا تصرفت ـ فى غير ملكها .

(٢) المغبة : العاقبة

ومنها صغر الهمة ، وهو : ضعف النفس عن طلب المـراتب العالية ، وقصور الأمل عن بلوغ الغايات ، واستكثار اليسير من الفضائل ، واستعظام القليل من العطايا ، والاعتداد به . والرضى بأوساط الأمور وأصاغرها .

وهذا الخلق : قبيح بكل أحد ، وهو بالملوك أقبح ، بـل ليس بمستحق الملك من صغرت همته .

ومنها : الجور ، وهو : الخروج عن الاعتدال فى جميـع الأمور ، والسرف والتقصير ، وأخذ الأموال من غير وجهها ، والمطالبة بما لا يجب من الحقوق ، وفعل الاشـيـاء فى غيـــر مواضعها ولا أوقاتها ، ولا على القدر الذى يجب ، وعلى الوجه الذى يجب .

ومن الاخلاق ما هو فى بعض الناس فضيلة ، وفى بعضهم رذيلة .

فمنها : حب الكرامة ، وهو أن يسر الإنسان بالتعظيم والتبجيل ، والمقابلة بالمديح ، والثناء الجميل .

وهذا الخلق محمود فى الأحداث والصبيان ، لأن محبة الكرامة تحثهم على اكتساب الفضائل .

وذلك أن الحدث والصبى ، إذا مدح على فضيلة ترى فيه كان ذلك داعيا له من الازدياد من الفضائل .

وأما الأفاضل من الناس ، فان ذلك يعد منهم نقيصة ، لأن الإنسان إنما يمدح على الفضيلة إذا كانت مستغربة منه ، واذا كان من أهل الفضل ، فليس ينبغى أن يسر ، بأن يستغرب ما يظهر منه من الفضائل .

وكذلك الاكرام والتبجيل اذا كان زائدا على استحقاقه ، فإنه يجرى مجرى الملق ، والسرور بالملق غير محمود ، لأنه من جنس الخديعة .

ومنها : حب الزينة ، وهو التصنع بحسن البزة (١) ، والركوب ، والآلات ، وكثرة الخدم والحشم .

وهذا مستحسن من الملوك والعظماء ، والأحداث ، والظرفاء والمتنعمين ، والنساء .

وأما الرهبان (٢) ، والشيوخ ، وأهل العلم ، وخاصة الخطباء والواعظين ، ورؤساء الدين ، فان الزينة والتصنع : مستقبح منهم .

---

(١) بكسر الباء وفتح الزاى المشددة : الهيئة .

(٢) رهبان الحق - الذين فرغوا انفسهم لعبادة الله - ، لا رهبان السوء الذين جمعوا كل الرذائل والمستقبحات .

والمستحسن منهم : لبس الشعر ، والخشن ، والمشى ، والخفاء ، ولزوم الكنائس (١) ، وحبرهم ، وكراهية التنعم ،

ومنها المجازاة على المدح ، وهو : مجازاة من يمدح الإنسان ، ويشكره فى المجالس والمحافل .

وهذا الخلق مستحسن من الملوك والرؤساء ، لأن ذلك يدعو الناس الى مدحهم ، ويكسب الممدوح ذكرا جميلا ، يبقى على الدهر .

ومن فضائل الملوك والرؤساء : بقاء ذكرهم الجميل ، فأما محبتهم سماع المدح مواجهة ، فذلك غير مستحب ، لأنه من جنس الملق ، وحب الملق مكروه ، لأنه من قبيل الخديعة .

وأما إيثارهم انتشار ذكرهم ومدحهم ، وتداول الناس له ، وبقاءه بعدهم ، فإن ذلك محمود منهم .

فمجازاة المادح مستحسنة من الملوك ، ومنعهم مستقبح وضار : لأن ذلك يدعو إلى ذمهم .

وذمهم يبقى أيضا على الدهر ، فينشر لهم ذكرا قبيحا ، وذلك مكروه للملوك والرؤساء .

وأما أصاغر الناس ، فمحبتهم جزاء المادح محمودة ، فإنه اذا مدح الدنىء من الناس فانما يخدعه ، فاذا أجازه اعتقد أنه استرق منه تلك الجائزة .

وكثير من الناس اذا مدحوا بما ليس فيهم : يبادرون الى مجازاة المادح ، فيكونون قد وضعوا الشىء فى غير موضعه ، وهم إذا صرفوا ذلك الشىء الى الضعفاء ، وأهل المسكنة كان أجمل بهم واليق .

---

(١) ليفرغوا انفسهم لما فرغوا أنفسهم له ، وذلك فى الازمنة التى كان الاسلام فيها مالكا للامور .

ومنها : الزهد ، وهو : قلة الرغبة فى الأموال والأعراض(١) والادخـــار ، والقنية ، وايثـــار القنـاعة بما يقيـــم الرمق ، والاستخفاف بالدنيا ومحاسنها ولذاتها ، وقلة الاكتراث بالمراتب العالية ، واستصغار الملوك وممـــالكهم ، وأربــــاب الأمـوال وأموالهم ، وهذا الخلق مســتحسن جدا ، ولــكن من العلماء والرهبان ورؤساء الدين والخطباء والـــواعظين ، ومن يرغب الناس فى المعاد والبقاء بعد الموت .

وأما الملوك والعظماء ، فإن ذلك غير مســتحسن منهم ، ولا لائق بهم ، لأن الملك إذا أظهر الزهد ، فقد صار ناقصا ، لان ملكه لا يتم إلا باحتشاد الأموال والأعراض (٢) وادخارها ، ليذب بها عن ملكه ، وصار معدودا من جملة النقص من الملوك الحائدين عن طريق السياسة .

فهذه الأقسام التى ذكرناها ، هى أخلاق جميع الناس .

أما المحمود منها ، المعدود فضائل ، فقلما تجمع كلهـــا فى إنسان واحد .

وأما المذموم منها ، المعدود نقائص ومعايب ، فقلما يوجد إنسان يخلو من جميعهـــا ، حتى لا يكون فيه خلق مـــكروه وخاصة ، من لم يرض (٣) نفسه ويؤدبها ، فإن لم يتعمل لضبط نفسه ، ويتفقد من عيوبه ، لم يخل من عيوب كثيرة ، وإن لم لم يحس بها ، ولم يفطن لها ، فإن كان الأمر على ماذكرنا ، كان الأجدر بالإنسان أن يتفقد أخلاقه ، ويتأمل عيوبه ، ويجتهد فى إصلاحها ، وينفيها عن نفسه ، ويتبع الأخلاق المحمودة ، ويحمل نفسه على اعتيادها والتخلق بها فإن الناس انما يتفاضلون على الحقيقة بفضائلهم ، لا كمـــا يعتقد الجهـــال والعـــامة : أنهـــم

(١ ، ٢) جمع عرض ، بفتح العين والراء .
(٣) بفتح الياء وضم الراء .

يتفاضلون بأحوالهم وأموالهم ؛ وكثرة الذخائر والأعراض ، فإن اكثر الناس انما يتفاخرون بالذخائر والأموال ، والآلات ، ويعظمون أبدا الأغنياء وذوى الأحوال ، ولا يترتب بعضهم على بعض إلا بكثرة الأموال ، وبالجاه المكتسب بالمال .

وليس كثرة الأموال ، مما تتفاضل بها أحوال الناس ، فأما نفوسهم ، فليس تكون أفضل من نفوس غيرهم ، بكثرة الأموال

وذلك أن الفاجر السفيه الجاهل الشرير — وإن حوى أموالا عظيمة — فليس يكون أفضل من الضعيف الحكيم العالم الخبير ، وإن كان فقيرا .

بل إنما يكون بكثرة الأموال أغنى منه ، فأما فى الفضل فليس يكون أحد أفضل من أحد الا بكثرة الفضائل فقط .

فإن اجتمع للإنسان — مع أخلاقه الجميلة والعادات المستحسنة — الغنى والثروة ، فلعمرى انه يكون احسن حالا من الفاضل المقتر ، لأنه من سعادات الإنسان أيضا — وخاصة إذا كان فاضلا ، عادلا ، عفيفا ، وأنه يصرف ماله فى وجوهه ، وينفقه فى حقوقه ، ويتفقد به من يجب تفقده ، ويسعف به أهل المسكنة ، ولا يقعد عما يجب فارق صاحبه (و) سقطت منزلة صاحبه من نفوس الناس ، وساوى العامة والسوقة لأنه اذا رأس بالمال المعظم له هو ماله : لا نفسه ، فإذا زال ذلك المال ، لم يبق له شىء يعظم من أجله (١) .

---

(١) يقصد الشيخ رحمه الله ورضى عنه : انه اذا عظم الناس صاحب مال أو سلطان ، فإنما يعظمون ماله او سلطانه ، بدليل انه اذا ذهب المال او السلطان رجع كما كان ، غير معظم ولا محترم — ولعل فى الجملة سقطا أو تحريفا فى الطبعة الأولى — والله أعلم .

وليس كذلك الفاضل النفس ، المهذب الأخلاق ، فإن هـذا رياسـته بفضـائله ، وفضـائله غير مفـارقة له ، فهو رئيس مادام (١) ومعظم لذاته لا لشيء من خارج ، ولأن الـراغب فى سياسة نفسه ، المؤثر تهذيب أخلاقه ، إذا نبه على خلق مذمـوم يجده فى نفسه ، وأحب اجتنابه ، ربما صعب الانتقال عنه من أول وهلة ، وربما لم ينل التخلص منه ، ولم بطاوعه طبعـه ، وربما استحسن ايضا خلقا محمودا لا يجـده لنفسـه ، وآثر التخلق به ، ولم تستجب له عادته ، ولم يصـل الى مراده ، فوجب ان نرسم للراغبين فى السياسة المحمودة طـرقا يتدربون بها ، ويتدرجون فيها ، حتى ينتهوا الى مرادهم من اعتيـاد الأخلاق الجميلة ، والأنطباع بهـا ، وتجنب الأخـلاق القبيحـة والتفرغ منها فنذكر من أجل ذلك :

---

(١) يعنى : مدة دوامه .

فصـــل

فى طريق الارتياض بالأخلاق والتعمل لاعتيادها

وقد ذكرنا فيما تقدم : أن سبب اختلاف الأخلاق فى الناس ، هو اختلاف قوى النفس الثلاث فيهم ، وهى : الشـــهوانية ، والغضبية والناطقة .

وأن ملاك الأخـــلاق ، هو تذليل الشـــهوانية منها ، والغضبية ، وتمييز عادات النفس الناطقة ، واستعمال المحمود من أفعالها .

وطريق التدريج لاستعمال العـادات الجميلة ، والعدول عن العادات المستقحبة ، هو التدرج فى تذليل هاتين القوتين .

. . . .

أما النفس الشهوانية فالطريق الى قمعها أن يتذكر الإنسان فى وقت شهواته ، وعند شدة القدوم الى لذاته ، أنه يريد تذليل نفسه الشهوانية ، فيعدل عما تاقت نفسه إليه من الشهوة الردية إلى ما هو مستحسن ، من جنس تلك الشهوة ، متفق على ارتضائه ، فيقتصر عليه .

فإن بذلك الفعل تنكسر شهوته ثم يعللها ويعدها ، فــإن سكنت ، وإلا عاود الفعل من الوجه المستحسن ، فإنه إذا فعــل ذلك وتكرر فعله ، كفت النفس ، وان استمر على هذه الحـــالة الفت النفس هذه العادة ، وأنست بها ، واستوحشت مما سواها.

وينبغى – لمن أراد قمع نفسه الشـــهوانية – أن يـكثر من مجالسة الزهاد والرهبان (١) والنساك وأهل الورع والواعظين،

---

(١) يقصد الشيخ رحمه الله بذكره الرهبان: الملتزمين منهم =

ويكرم مجالسة الرؤساء وأهل العلم ، فإن الرؤساء ـ وخاصة رؤساء الدين ـ يعظمون من كان معروفا بالعفة ويستزرون من كان فاجرا متهتكا .

وملازمته لهذه المجالس تضطره إلى التصون ، والتعفف ، والتجمل لأولئك لئلا يستزروه ويغضوا منه ، وليلق برتبة من يعظم فى المحافل .

وينبغى له أيضا أن يديم النظر فى كتب الأخلاق والسياسة ، وأخبار الزهاد والرهبان ، والنساك ، وأهل الورع ، ويجب عليه أن يتجنب مجالس الخلعاء والسفهاء ، والمتهتكين ، ومن يكثر الهزل واللعب .

وأكثر ما يجب عليه : تجنب السكر ، فإن السكر من الشراب يثير نفسه الشهوانية ، ويقويها ، ويحملها على التهتك وارتكاب الفواحش ، والمجاهرة بها ، وبذلك إن الانسان إنما يرتدع عن القبائح بالعقل والتمييز ، وإذا سكر عدم ذلك الذى كان يردعه عن الفعل القبيح ، فلا يبالى أن يرتكب كل ما كان يتجنبه فى صحوه .

فأولى الأسباب لمن طلب العفة هجر الشراب بالجملة ، وإن لم يمكنه ، فليقتصر على اليسير منه (١) ويكون فى

= بحدود التوراة والانجيل الذين نزلا من عند الله ـ ولعل فى قول الله تبارك وتعالى ـ ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون اموال الناس بالباطل ـ إشارة الى ذلك ، فإن قوله ـ كثيرا ـ يفيد ان فيهم أيضا أناسا لا يفعلون ذلك ، لأنه لم يقل ـ إن الأحبار والرهبان ـ بل عبر جل وعلا بـ « كثيرا » وهذا النوع غير موجود الآن ، والله أعلم .

(١) استدراجا لنفسه ، حتى تنتهى بالمرة ، وفى كلامه بعد اشارة الى ذلك انظر ص ٤٩ .

الخلوات ، أو مع من لا يحتشمه ، ويتجنب مجالس المجـاهرين بالشراب والسكر ، والخـــلاعة ، ولا يظن أنه إن حضـــر تلك المجالس ، واقتصر على اليسير من الشراب : لم يستضر به ، فإن هذا غلط (١) .

وذلك أن من حضر مجالس الشراب ، ليس تنقاد له نفسه الى القناعة بيسير الشراب ، بل ان حضر مجالس الشراب ، وكان فى غاية العفة ، تاركا للشراب ، متمسكا بالورع ، حملته شهوته على التشبه بأهل المجلس ، وتاقت نفسه الى الفعل لما هو أكثر من ذلك ، وتهتك بعد الستر والصيانة .

فسيمة أحوال من طلب العفـــة : عـدم حضـور مجـالس الشراب ومخالطة أهلها والاستكثار من معاشرتهم .

وينبغى : لمن اراد قمع نفسه الشهوانية ان يقل من اسـتماع السماع ، وخاصة النسوان والشابات منهن ، المتصنعات ، فـإن للسماع قوة عظيمة فى اثارة الشهوة ، فاذا انضـــاف الى ذلك : أن تكون المسمعة مشتهاة متعلمة (١) لاستمالة العيون إليها :اجتمع على السماع حوادث كثيرة ، فربما لم يستطع دفـــع جميعها عن نفسه ، والأولى لمن هم بقهر الشهوة : أن يتجنب السماع ، وإن لم يكن منه بد ، ولم تستجب نفسه إلى هجره بالكلية ، فليقتصر على استماعه من الرجال ، ومن لا مطمع للشهوة فيه ، والإقلال منه خير وأصون للمتعفف .

فاما الطعام ، فينبغى ان يعلم ان غايته هو : الشـــبع ، لدفع ألم الجوع ، فخير الطعام ورديه جميعا مشبعان ، فليس للمبالغة فى تجويد الطعام كبير حظ .

---

(١) أى إن الخمر ولو قليلة فيها الخطر ولابد .

(٢) طرق الضرب والإيقاع .

والأولى هو التوسط فى أنواع المأكل ، وأن يكون فى الجنس الذى نشأ عليه الإنسان ، واعتاده وألفه ، على أن شهوة الطعام والنهم فيه ، وإن كان من الأخلاق الردية فهو أسهلها وأهونها ، وليس يكسب صاحبها من العار ما يكسبه محبة الشراب والمباضعة ، ومعاشرة النسوان ومصاحبة الاحداث ، المتهيئين للفواحش ، فإن ذلك فى غاية القبح ، وشهوة المأكل أقل قبحا منه ، وأخف على فاعله ، وهو مع ذلك قبيح ، والاستهتار به وكثرة النهم والشره إليه مكروه ، وطريق التدرج الى الاقتصاد فى الطعام ، هو : أن يبادر ذو الشهوة إلى أى شىء وجده من المأكل ، فإن كان المشتهى الذى تاقت نفسه اليه حلوا فإلى أى حلاوة وجدها ، وإن كان غير ذلك ، فإلى ما يشابهه فى الطعم فانه اذا تناول من الطعام ما يشبهه ذلك المشتهى فى الطعم ، فإن شهوته تسكن ، ونفسه تكف .

وينبغى لمن أحب العفة أن يكون أبدا متيقظا ، ذاكرا لما يلحق الفاجر والنهم والشره والمتهتك من القباحة والعار ، ويجعل ذلك ديدنه وشعاره ، فإن نفسه تبغض الشهوات ، وتشتاق إلى التعفف والقناعة ، وتطرب عند العدول عن الفواحش ، مع القدرة عليها ، وترتاح لما ينشر عنها ، ويبلغها عن الناس من الثناء الجميل على صاحبها .

فهذا الذى ذكرنا هو : طريق رياضة النفس الشهوانية ، وتذليلها وقمعها ، وهو طريق الارتياض بالمعادات المحمودة المرضية ، فيما يتعلق بالشهوات واللذات .

فأما النفس الغضبية فإن الطريق فى قمعها وتذليلها هو : ان يصرف الانسان همته الى ان يتفقد السفهاء الذين يسرع اليهم الغضب فى أوقات طيشهم وحدتهم وتسفههم على خصومهم ، وعقوبتهم لخدمهم وعبيدهم ، فإنه يشاهد منهم منظرا شنيعا ،

يأنف منه الخاص والعـــام ، فإن تذكر ما شـــاهد فى أوقات غضبه ، وعند جنايات خدمه وعبيـــده ، وعند ذنوب اخـوانه وأودائه ، وفى جميع محاوراته ومعاملاته ، فإنه إذا تذكـــر ما كان استقبحه من السفهاء : انكسرت بذلك سورة (١) غضبه ، واحجم عماهم بالإقدام عليه من السب والوثوب ، فإن لم يكف بالكلية أقصر ، ولو أنه غاية الفحش .

وينبغى لمن أراد أن يقهر نفسه الغضبية ، أن يذكر أوقات غضبه على من يؤذيه ، أو يجنى عليه ، أنه لو كان هو الجانى : ما الذى كان يستحق على جنايته ؟ .

فإنه بهذا الفعل يعتقد أن درك تلك الجناية ، أو أرش (٢) ذلك الأذى : يسير جدا .

فإذا اعتقد ذلك ، كانت مقابلته للجـــانى ، والمؤذى ، بحسب اعتقاده ، فلا يسرف فى الانتقام ، ولا يفحش فى الغضب

فاذا فعل ذلك دائما ، وجعله ديدنا ، وتفقد معائب السفهاء ، ومن يسرع إليه الغضب ، لم يبعد أن تنـــكسر نفسه الغضـــبية وتناقد ، فاذا استمر على ذلك مدة : صار خلقا وعادة .

وينبغى لمن يرغب فى تذليل نفسه الغضبية أن يتجنب حمل الســـلاح ، وحضـور مواضع الحـروب ، ومقـــامات الفتن ، ومجالسة الأشرار ، ومعاشرة السفهاء ، ومخالطة الشرط ، فإن هذه المواضع تكسب القلب قساوة وغلظة ، وتعدمه الرأفـــة والرحمة ، فتقسوا لذلك نفسه الغضبية .

فاذا كان يريد تذليها وتسكينها ، وجب أن يجعل مجالسته

---

(١) بفتح السين المهملة وسكون الواو : شدة الغضب

(٢) دية الجراحات .

لأهل العلم ، وذوى الوقار ، والشيوخ ، والرؤساء ، والأفاضل ، ومن يقل غضبه ، ويكثر حلمه ووقاره .

وينبغى له أيضا : أن يتجنب المسكر من الشراب ، فـــإن السكر يهيج النفس الغضبية أكثر مما يهيج الشهوانية ، وبذلك ربما يسرع إلى العربدة ، والوثوب على جلسائه ، والاستخفاف بهم وسبهم ، وذكــر أعراضـــهم ، بعد أن كان يتحنن عليهم ، ويتودد اليهم .

ولا يكون بين الوقتين إلا بمقدار ما يستحكم عليه السكر ، فالسكر مثير للقوة الغضبية ، ومقولها ، فمن أراد أن تسكن نفسه الغضبية ، فلابد أن يتجنب المسكر .

وان تمكن من هجران الشراب ألبتة ، فهو اصـــلح لقهــر النفس الغضبية والشهوانية ـ جميعا .

وينبغى لمن أراد تذليـــل قوته الغضبية والشـــهوانية أن يستعمل فى جميع ما يفعله الفكر ، ولا يقدم على الشىء إلا بعد أن يتروى فيه ، ويجعل الفكرة واتبـــاع الرأى ديدنه وعادته ، فإن الرأى وجودة الفكر ، يقبحان له الســـفه وسرعة الغضب ، والإنهماك فى الشهوات ، واتباع اللذات ، فإذا اســـتقبح ذلك احجم عنه ، وعدل إلى ما يقتضيه الرأى والفكر ، وإن لم يرتدع بالكلية ، فلابد ان يؤثر ذلك فيه ، فيقتصر عما يريد الشروع فيه .

وملاك الأمر فى « تهذيب الاخلاق » وضبط النفس الشهوانية والنفس الغضبية هى تقوية النفس الناطقة فان بهذه النفس تكون جميع السياسات .

وهذه النفس إذا قويت متمكنة من صاحبها أمـــكنه : أن يسوس بها قوتيه الباقيتين ، ويكف نفسه عن جميع القبـــائح ،

ويتبع أبدا مكارم الأخلاق ، وإذا لم تكن هذه النفس قوية فى صاحبها ، وكانت مقهورة خافتة ، فأول ما ينبغى أن يعتمده فى سياسة أخلاقة أن يروض هذه ويقويها ، وتقوية هذه النفس انما يكون بالعلوم العقلية ، فانه اذا نظر فى العلوم العقليـــة ودقق النظر فيها ودرس كتب الأخلاق والسياسة ، وداوم عليها تيقظت نفسه ، وتنبهت ، وانتعشت من خمولها ، واحست بفضائلهـا ، وأنفت من رذائلها ، وذلك ان هذه انما تضعف وتحفت اذا عدمت الفضائل والمناقب ، واستولت عليهـــا الرذائل ، فإذا اقتنت الفضائل ، واكتسبت الآداب ، تيقظت من غشيتها ، وثارت من سكرتها ، وقويت بعد ضعفها .

وفضائل هذه النفس هى : العلوم العقلية ، وخاصة مادق منها ، فاذا ارتاض الانسان بالعلوم العقلية شرفت نفسه ، وعظمت همته ، وقويت فكرته ، وتمكن من نفسه ، وتملك أخلاقه ، وقدر على إصلاحها ، وانقاد له طبعه ، وسهل عليه تهذيبه ، واذعنت له القوة الغضبية والشهوانية ، وهان عليه قمعها وتذليلها .

فأول ما ينبغى ان يبتدىء به من يحب سيـــاسة أخلاقه : النظر فى كتب الاخلاق ، والسياسة ، ثم الارتباض بعلوم الحقائق، فإن أشرف ما تكون النفس إذا أدركت حقائق الأمور ، وأشرفت على هيئات الموجودات .

واذا شرفت نفس الانسان وعلت همته : ترقى الى مراتب اهل الفضل .

ومما يصلح النفس الناطقة ويقويها أيضا : مجالسة أهـــل العلم ، ومخالطتهم ، والاقتداء بأخلاقهم وعاداتهم ، وخاصـة أصحاب علوم الحقائق ، والمتيقظين منهم ، المستعملين فى جميع امورهم ما تقتضيه علومهم ، وتوحيه عقولهم .

فأما تمييز عادات النفس الناطقة ، واســتعمال ما حسن منها واطراح ما قبح ، فذلك انما يمكن ويسهل أيضا اذا راض نفسه

الناطقة فان النفس الناطقة اذا ارتاضت بالعلوم الحقيقيـــة ، وتيقظت ، وشرفت : انفت من العادات المســتقبحة وتنزهت عن التدنس بها ، فيهون حينئذ على صاحبها تجنب ما يكـــره من عاداتها ، ويتغلب عليه استحسان الأخلاق الجميلة ، والتخلق بها ، وقد تبين من جميع ما ذكرنا : ان طريق الارتياض وبالأخـــلاق المحمودة : المرضى منها ، والتصنع لاعتيادها ، واتبـاع المحمود المرضى منها ، واجتناب المذموم والمستقبح .

وتذليل قوة الشهوة الغضـبية ، وضـــبطها وقهرها هو : إصلاح النفس الناطقة وتقويتها ، وتحليتها بالفضـائل والآداب والمحاسن ، فإن ذلك هو آلة السياسة ، ومركب الرياضة ، ومن لم يتمكن من اكتساب العلوم العقلية والامعان فيها ، او تعذر عليه ذلك ، فليبذل جهده فى تدقيق الفـــكر ، ومجـــاهدة النفس ، وتمييز ما بين عاداته القبيحة والجميلة ، وينظر ايهـا اجـــدى عليه ، وأيها أنفع له ، وأيها أحمد عاقبـــة وأبقى على الايام ، فانه اذا صدق نفسه ، وجد شهواته ولذاته انمـــا هى ملذة وقت استعمالها فقط ، فأما بعد مفارقتها ، فليست باقية عليه ، ولانافعة له ويجد عارها وشينها باقيا على الدهر ، متداولا بين الناس ، يعاب به ويزرى عليه بقبحه .

وكذلك شدة الغضب ، والتسـرع إلى الانتقـــام والسب ، والفحش ، فإنه إذا انجلت غمرته (١) ، وسكنت سورته (٢) ، وتأمل امر ما فعله : وجده قبيحا ، ولم يجده مجديا ولا مفيدا .

وقد صار ما فعله عند الغضب نقيضة يوســـم (٣) بها ، ومعرة يسب بها .

---

(١) الغمرة : بفتح الغين المعجمة ، وسكون الميم : الشدة .
(٢) شدة الغضب (٣) الوسم : العلامة .

وربما ارتكب فى الغضب جنايات ، يعاقب عليها ، ويؤدب من أجلها .

وكذلك العادات المكروهة من عادات النفس الناطقة أيضا يجدها غير نافعة ولا مجدية .

وذلك ان : الحسد ، والحقد ، والخبث ، وأمثال هذه : لا ينتفع بها صاحبها ، وان انتفع بالخبث والشر ، فشر منفعة .

ومع ذلك هو : ضار له ، فان من تشرر : قصده الناس واستعدوا لأذيته وتصدوا للاضرار به ، وتوقوه ، واحترزوا منه ، وكرهوا نفعه ، وقصروا وجوه الخير عنه ، واجتهدوا فى ذلك .
وما أسوأ حال من هذه صفته ، فمستعمل الشر والخبث سيىء الحال ، يضره شره أكثر مما ينفعه .

فإذا حاسب الإنسان نفسه ، وأجال فكره ، وتمييزه : علم أن الضرر فى مساوىء الاخلاق أكثر من النفع ، وأن الذى يعده منها نفعا ليس هو بنفع على الحقيقة ، وهو يسير جدا غير باق ، ولا مستمر .

فإن هذا اليسير الذى يعده نفعا لا يفى بالضرر الكثير ، والعار الدائم المتصل .

ويعلم أيضا أن : الشر والخبث يجلبان عليه الشر ، ويوحشان منه الناس .

فإذا أدام ذلك ، وأكثر منه ، قوى فى نفسه اتباع محاسن الأخلاق ، وسهل عليه اطراح مساويها ومقابحها ، وغلب عليه الخير والسداد ، وفرغ من العيب والعار .

فاذا فعل ذلك دائما : لم يلبث أن يصلح أخلاقه ، ويحسن طريقته ، ويهذب شمائله ، ويلحق برتبة أهل الفضل ، ويتميز عن أهل الدنس والنقص .

وينبغى لمن أراد سياسة أخلاقه • أن يجعل غرضـــه من كل فضيلة : غايتها ونهايتها ، ولا يقنع منهـا بما دون الغـــاية ، ولا يرضى إلا بأعلى درجة ، فإنه إذا جعل ذلك غرضه ، كان حريا أن يتوسط فى الفضائل ، ويبلغ منها رتبة مرضـــية ، إن فاتته الدرجة العالية •

فأما ان قنع بالتوسط : لم يأمن أن يقصر عن بلوغه ، فيبقى فى ادون المراتب ، ويفوته المطلوب ، فلا يطمع أبدا فى التمام •

فهذا الذى ذكرنا ، هو طريق الارتياض بمكارم الأخلاق ، ومنهج التدرج فى محمود العادات •

فاذا أخذ الانسان نفسه به ، وأكثر مراعاته ، وتعهده ، صار له أمر الفضائل ديدنا ، والمحاسن له خلقا وطبعا •

• • • • • • • • • •

وقد بقى علينا ان نذكر :

فصـــــل

« فى أوصاف الانسان التام الجامع لمحاسن الأخـلاق وطريقته التى بها يصل الى التمام » .

فنقول : الانسان التام ، هو الذى لم تفته فضيلة ، ولم تشته رذيلة ، وهذا الحد قلما ينتهى اليه انسان .

واذا انتهى الانسان الى هذا الحد ، كان بالملائكة أشبه منه بالناس .

فإن الإنسان مضروب بانواع النقص ، مستول عليه وعلى طبعه ضروب الشر ، فقلما يخلص من جميعها حتى تسلم نفسه من كل عيب ومنقصة ، ويحيط بكل فضيلة ومنقبة .

الا ان التمام – وان كان عزيزا بعيد التناول – فانه ممكن ، وهو غاية ما ينتهى اليه الانسان ، ونهاية ما هو منته له .

وإذا صدقت عزيمة الإنسان وأعطى الاجتهاد حقـه كان قمينا (١) بأن ينتهى إلى غايته التى هى منتهى له ، ويصل الى بغيته التى تسموا نفسه اليها .

فأما تفصيل أوصاف الإنسان التام ، فهو : أن يكون متفقدا لجميع أخلاقه ، متيقظا لجميع معايبه ، متحرزا من دخول كل نقص عليه ، مستعملا لكل فضيلة ، مجتهدا فى بلوغ الغاية ، عاشقا لصورة الكمال ، ملتذا بمحاسن الأخلاق ، متيقظا لمذموم العادات ، معتنيا بتهذيب نفسه ، غير مستكثر ما يقتنيـه من الفضائل ، مستعظما لليسير من الرذائل ، مستصـغرا للرتبة

---

(١) يعنى : جديرا .

العليا ، مستحقرا للغاية القصوى ، يرى التمام دون محله ، والكمال أقل أوصافه .

فأما الطريقة التى توصله إلى التمام ، وتحفظ عليه الكمال فهى : ان يصرف عنايته إلى النظر فى العلوم الحقيقية ، ويجعل غرضه الاحاطة بماهيات الأمور الموجودة ، وكشف عللها وأسبابها ، وتفقد غاياتها ، ولا يقف عند غاية من علمه إلا ورنا (١) بطرفه إلى ما فوق تلك الغاية ، ويجعل شعاره — ليله ونهاره — قراءة كتب الأخلاق ، وتصفح كتب السير ، والسياسات ، وأخذ نفسه باستعمال ما أمر أهل الفضل باستعماله ، واشار المتقدمون من الحكماء باعتياده ، وينشد أيضا طرفا من أدب البيان والبلاغة ، ويتحلى بشىء من الفصاحة ، والخطابة ، ويغشى أبدا مجالس أهل العلم والحكمة ، ويعاشر دائما أهل الوقار والعفة .

هذا إن كان رعية وسوقة .

فإن كان ملكا ورئيسا ، فينبغى أن يجعل جلساءه ومنادميه وغاشته (٢) والمطيفين به : كل من كان معروفا بالخير والسداد ، موصوفا بالأدب والوقار ، مخصصا بالعلم والحكمة ، محققا بالفهم والفطنة ، ويقرب مجالس أهل العلم ، وينشطهم ، ويكثر مجالستهم والأنس بهم ، ويجعل تفرجه وتفكهه مذاكرتهم فى العلم وفنونه ، وسياسة الملك ورسومه ، وأخبار الحكماء وأخلاقهم ، وسير الملوك الأخيار وعاداتهم .

وينبغى للإنسان التام ، ولمن طلب طريقته التى بها يصل الى التمام : ان يجعل لشهواته ولذاته قانونا راتبا ، يقصد فيه

---

(١) رنا : أدام النظر .

(٢) بفتح الشين المعجمة والتاء الخفيفة : أى من يغشاه .

الاعتدال ، ويجتنب السرف والإفراط ، ويعتمد من الشهوات واللذات المعتمدة له : ما كان من الوجوه المرتضاة المستحسنة ، ويأخذ نفسه بذلك ، ويحض عنها الطبع ، ويهجر أصحاب اللذات ومعاشرتهم ، وينقبض عن الخلفاء (١) ومخالطتهم ، ويشعر نفسه أن الشهوة عدو مكاشح (٢) ، وخصم مكافح ، يريد أبدا ضرورة وأذيته ، ويعتمد شينه وفضيحته ، فيناصب شهوته بالعداوة ، ويكاشفها بالمعاندة ، ويقمع أبدا سورتها ، ويكسر دائما حدتها ، ويقهر سطوتها ، ويذلل ـ على التدريج ـ عزتها ، ويسكن ـ على الترتيب ـ فورتها .

فانه اذا فعل ذلك : كان خليقا ان يملك نفسه ، وتنقاد له شهوته ، وتنطبع بالعفة ، وتألف حسن السيرة .

ومتى أرخى لشهوته عنانها ، وسمح لها فى مرادها ، وأهمل سياستها ومراعاتها ، واستطالت وشمخت ، ولم تلبث أن توهن صاحبها ، وتقوده ، وتحمله على ما يسوؤه ، ويعره (٣) فيصير بذلك بعيدا من التمام ، غير طامع فى الكمال .

وينبغى لمن يطلب التمام : أن يعلم أنه لا سبيل له إلى بلوغ غرضه مادامت اللذة عنده مستحسنة ، والشهوة مستحبة ، وهذه الحال صعبة جدا ، متعسرة على طالبها ، بعيدة المأخذ ، وهى على الملوك والرؤساء أصعب وأبعد ، لأن الملوك والرؤساء أقدر على اللذات ، واشد تمكنا ، والشهوات واللذات لديهم معروضة ،

---

(١) يقصد خلفاء السوء ، أو الخلفاء والملوك الذين كانوا فى عهده ، فان ايديهم كانت أقرب الى السيف منها الى النعمة وقد اصابه منهم اذى كثير والله تعالى اعلم .

(٢) مكاشح : لاصق بكشحه ، والكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع . وهو تعبير عن شدة القرب .

(٣) أى يلصق به الفضيحة .

ولهم سجية وعادة ، فمفارقتها عليهم متعذرة ، وإعراضهم عنها كالشيء الممتنع ، خاصة لمن قد نشأ على الانهماك فيها ، والتوفر عليها .

إلا أن الملوك — وإن كانوا أقدر على اللذات وأكثر اعتيادا لها — فهم أعظم همما ، وأعز نفوسا ، والمحصل منهم إذا سمت نفسه إلى التمام الإنسانى ، واشتاقت إلى الرياسة الحقيقية ، علم ان الملك أحق أن يكون أتم أهل زمانه ، وافضل أعوانه ورعيته ، فيهون عليه مفارقة الشهوات ، وهجر اللذات الدنية .

وينبغى لمن رغب فى سياسة أخلاقه ، وسلك طريق الاعتدال فى الشهوات ، ان يجعل (لها) قانونا يقتصر عليه فى المآكل والمشارب ، مقرونا بالكرم ، وهو أن لا يستبد بالمأكل والمشرب وحده ، بل يقصد ان يشرك فى ما له من ذلك اخوانه وأوداءه ، ان كان رعية وسوقه .

وان كان ملكا رئيسا فيجمع عليه حاشيته وندماءه ، ويعم به أصحابه وأعوانه ، ويتفقد بفضلاته (١) أهل الفقر والمسكنة ، وخاصة من سبقت له معرفة به ، أو تقدمت له خدمة ، فيصرف إلى حاجاتهم من عنايته ، فإن اعتداد هؤلاء بما يصل إليهم من بره ، أكثر من اعتداد حاشيته وأصحابه ، وليظهر لمن يجتمع على مائدته ، وعلى طعامه وشرابه ، من إخوانه وأصدقائه ، ورعيته وندمائه — وان كان ملكا — أن جمعه لهم للأنس بهم ، والسرور بمعاشرتهم ، لا ليكرمهم بطعامه وشرابه ، ولا أن لذلك قدرا يعتد به .

ويحترز — كل الاحتراز — من أن يبدو منه امتنان بالطعام

---

(١) ما يفضل منه .

والشراب ، أو تبجح به ، فإن ذلك يزرى بفاعله ، ويغض منه ، ويوحش من يغشاه ، ويقطعهم عنه .

وقد يستحسن من الإنسان أيضا ـ إذا كان مقلا ـ ان يواسى بطعامه إخوانه ، وإن كان محتاجا إليه ، ويستحسن منه أيضا أن يواسى به الفقراء والضعفاء ، وقد يستحسن منه أيضا أكثر من ذلك ، بأن يؤثر الإنسان بطعامه وشرابه غيره ، وإن كان شديد الاضطرار اليه ، وكان لا يقدر على غيره .

. . . .

وينبغى أيضا لمن طلب السياسة التامة : أن يستهين بالمال ويحتقره وينظر اليه بالعين التى يستحقها ٠

فإن المال : إنما يراد لغيره ، وليس هو مطلوبا لذاته ، فإنه فى نفسه غير نافع ، وإنما الانتفاع بالأغراض التى تنال به

فالمال آله تنال بها الأغراض ، فلا يجب أن يعتقد أن اقتناءه وادخاره مفيد ، فاذا ادخر وحرص عليه : لم ينل صاحبه شيئا من الأغراض التى هو بالحقيقة محتاج اليها ٠

فالمال هو مطلوب لغيره ، فينبغى للسديد الرأى ، العالى الهمة ، ان يزنه بوزنه ، فيكسبه من وجهه ، ويفرقه فى وجهه ؛ ويكون مع ذلك ، غير متوان فى اكتسابه ، ولا مقدم فى طلبه ، لأن عدم المال يضطره إلى التواضع لمن هو دونه ، إذا وجد عنده حاجته ، ووجود المال يغنيه عن : من هو فوقه ، وان دنت منزلته

ويكون — أيضا — غير مدخره ولا متمسك به ، بل يصرفه فى حاجاته ، وينفقه فى مهماته ، ويقصد الاعتدال فى تفريقه ، ويحذر من السرف والتبذير فى تخريجه ، ولا يمنع حقا يجب عليه ، ولا يصرفه فى شىء لا يجب ولا يشكر عليه ٠

وإذا فرغ من حاجته ، واستكفى من نفقاته ، وسد خلله(١) عاد الى النظر فى أمره ، فان كان بقى من ماله بقية فاضلة عن مهم اغراضه : أخرج منها قسطا ، فجعله عنده يستظهر به لشدة ، ويعده لنائبة ، ثم عمد الى الباقى وفرقه فى ذوى الحاجة ، من أهله ، وأقاربه ، واخوانه ، وأهل مودته ، وجعل فيه قسطا للضعفاء والمساكين ، وأهل الفاقة المستورين ، وجعل

---

(١) الخلل : بضم الخاء ، جمع خلة بفتح الخاء ، وهى : الحاجة ٠

اهتمامه بإفضاله وبره : أكثر من اهتمامه بضروراته ، فإن الضرورات تقوده كرها إليها ، وأكثر النوافل متى لم يهم بها ويشعر نفسه الزامها : لم يسهل عليه فعلها ، لأن ضعف النفس وسوء الظن يصر فانه عنها ، وإن لم يكن له جاذب من نفسه ، وداع قوى من همته ، لم يقدم عليها ، وغلب عليه التوانى ، فإذا توانى عن البر والفضل : كان شحيحا دنيا ، وليس بتام .

بل ليس بالحقيقة انسانا من لم يكن له بر يعرف ، ولم تنتشر له أفعال توصف .

هذا إن كان من أوساط الناس .

فأما الملوك والرؤساء ، فإنهم أحق بهذه السياسة ، ويجب أن يكونوا بذلك أشد عناية ، فيجبو الأموال من حقها وواجبها ، ويصرفوا منها فى نفقاتهم ومؤنساتهم ، وأرزاق جندهم ، واصحابهم تدر الكفاية ، من غير سرف ولا تقتير ، ويعدوا منها شطرا لخوف عاقبة ، ويصرفوا الباقى فى طريق الكرم والجود ، ووجوه الخير والبر ، فيعطوا أهل العلم على طبقاتهم ، ويجعلوا لهم رواتب من خواص أموالهم ، ويدفعوا لمن هو مثابر على العلم والأدب ، ويبرو الضعفاء والمساكين ، ويتفقدوا الغرباء ، ويهتموا بالزهاد وأهل النسك ، ويخصوهم بقسط من إفضالهم وإنعامهم ، ويعتنوا بالصغير والكبير ، وينفقوا فى مصالحهم شطرا من أموالهم ، فإن الملوك أولى بالكرم من الرعية ، وأحق بالجود من العامة .

وقد يستحسن أيضا من الملقين (١) والمقترين : المواساة بالمال والايثار به ، وان كانوا محتاجين اليه ، وكلما كانت حاجتهم أشد ، كان ذلك الفعل حسنا ، وهذه الحال مستحسنة ، إذا رأى الرجل أخا من إخوانه ، أو صديقا يختص به ، وقد دعته الحاجة

---

(١) بفتح الميم وكسر اللام والقاف .

إلى مالا يقدر عليه لإصلاح شيء من شأنه ، أو لدفع محنة نزلت به ، وكان هو قادرا على ذلك القدر من المال ، فيبتدى بإسعافه : عفوا من غير مسئلة .

وإن فعل هذا الفعل مع الغريب الذى لا يعرفه ، ولم تسبق له حرمة ولا مودة ، كان جميلا مستحسنا .

وينبغى لمحب الكمال : أن يشعر نفسه ان الغضبان بمنزلة البهائم والسباع : يفعل ما يفعله من غير علم ، ولا روية .

فإذا جرى بينه وبين غيره محاورة : أدت إلى أن يغضب خصمه ويتسفه عليه : اعتقد فيه أنه فى تلك الحالة بمنزلة البهائم والسباع ، فيمسك عن مقابلته ، ويحجم عن الاقتصاص منه ، ألا يعلم أن الكلب لو نبح عليه ، لم يكن يستحسن مقابلته على نبحة ؟ وكذلك البهيمة لو رمحته ، لم يستحسن عقوبتها ، ؟ لأنها غير عالمة بما تصنعه ، إلا أن يكون جاهلا ، فإن من السفهاء من يغضب على البهيمة إذا رمحته ، ويوجعها ضربا اذا آذنه ، وربما عثر السفيه فشتم موضع عثرته ، ورفسه برجله .

فأما الحليم الوقور ، فلا يستحسن شيئا من ذلك ، وإذا استشعر فى خصمه أنه بمنزلة البهائم : صار هذا الاستشعار منه طريقا إلى ضبط النفس الغضبية ، وزمها (١) وأن أذاه مؤذ بغير سفه . فيؤدى ذلك الأذى الى حال يغضبه ، أنف أيضا من الغضب ، مع استشعاره أن الغضبان والبهيمة سواء ، فيعدل حينئذ إلى مقابلة مؤذيه بما يقتضيه الرأى ، من حيث لا يظهر فيه غضب ولا سفه .

وينبغى لمحب الكمال أيضا أن يعود نفسه محبة الناس

---

(١) الزم : بالزاى ، هو شد الزمام (المقود) مأخوذ من زم البعير : إذا خطمه .

أجمع ، والتودد إليهم ، والتحنن عليهم ، والرأفة والرحمة بهم ، فإن الناس قبيل واحد ، متناسبون ، تجمعهم الإنسانية ، وحلية القوة الإلهية هى فى جميعهم ، وفى كل واحد منهم ، وهى النفس العاقلة ، وبهذه النفس صار الإنسان إنسانا ، وهى أشرف جزئى الانسان : الذين هما : النفس والجسد ، والانسان بالحقيقة هو (١) : النفس العاقلة ، وهى جوهر واحد فى جميع الناس ، وكلهم بالحقيقة شىء واحد ، والأشخاص كثيرون •

وإذا كانت نفوسهم واحدة ، والمودة إنما تكون بالنفس ، فواجب ان يكونوا كلهم متحابين متوادين ، وذلك فى الناس طبيعة ، لو لم تقدهم النفس الغضبية ، فإن هذه النفس تحبب لصاحبها الترأس ، فتقود صاحبها إلى الكبر والإعجاب والتسلط على المتضعف ، واستحقار الصغير ، وحسد الغنى وذى الفضل ، فتنشأ من أهل هذه الأسباب : العداوات ، وتتأكد البغضاء بينهم ، فاذا ضبط الانسان نفسه الغضبية ، وانقاد لنفسه العاقلة صار الناس كلهم له أحبابا ، وإخوانا •

واذا أعمل الانسان فكره : رأى ذلك واجبا ، لأن الناس اما ان يكونوا فضلا ، أو نقصاء •

فالفضلاء تجب عليه محبتهم لموضع فضلهم ، والنقصاء تجب عليه رحمتهم لموضع نقصهم •

فيحق لمحب الكمال : أن يكون محبا لجميع الناس ، متحننا عليهم رؤوفا بهم ، وخاصة الملك والرئيس ، فان الملك ليس يكون ملكا ما لم يكن محبا لرعيته ، رؤوفا بهم ، وذلك أن الملك ورعيته بمنزلة رب الدار ، وأهل داره ، وما اقبح رب الدار أن يبغض أهل داره ، ولا يتحنن عليهم ويحب مصالحهم •

---

(٢) فى الأصل : « هى »

وينبغى لمحب الكمال أن يجعل همته فعل الخير مع جميع الناس ، وإنفاق ما يفضل من ماله فيما يبقى له الذكر الجميل بعد موته ، ويتحرز من فعل الشر ، فإنه إذا حاسب نفسه : علم أن من فعل الشر فإنه يفعله لخير لا يعتقد (١) أنه يصل إليه ، وربما كان غالطا .

وإذا علم أن الأمر على هذه الصفة كان واجبا عليه أن يطلب الخير الذى يرومه من طريق غير طريق التشرر ، إذا كان هو الغرض المطلوب : لا فعل الشر .

فأما إن كان تشرره يلحقه أسفا وغيظا ، فليعلم أنه إذا سكن غيظه ، وجد ذلك المقصود بالشر : غير مستحق لذلك الفعل ، ففعل الشر قبيح ، وخاصة بمن قد جمع الفضائل .

الا أن يكون ذلك الشر تأديبا على جرم ، واقتصاصا من جان ، فان هذه الحال مستحبة محمودة ، بل لا يعد شرا ، لأن ذلك الشر انما يصل الى الجانى فقط ، ويكون منه نفع عام لجميع الناس ، بأن يرتدع امثاله من الجناة ، وتكون المنفعة فيه أكثر ، من أجل ذلك لا يعد شرا .

وإذا اعتمد الإنسان فعل الخير ، وألفه ، وتجنب الشر ، واستوحش منه : أنف من الأخلاق المكروهة ، التى تعد شرا كالحسد ، والحقد ، والخبث ، والخديعة ، والنميمة والعيبة ، والواقعية ، وامثال هذه العادات .

واذا فكر العاقل المحصل فيها : علم انها غير مجدية عليه نفعا ، وهى مع ذلك تشينه وتقبح صورته .

واذا كان محبا للتمام ، مستشرفا للكمال ، كان واجبا عليه تجنب هذه الأخلاق .

---

(١) فى الأصل المطبوع « ليعتقد »

وينبغى لمحب الكمال : أن يعتقد أنه ليس شىء من العيوب والقبائح خافيا عن الناس ، وإن اجتهد صاحبها فى سترها ، فلا يطمع نفسه فى ارتكاب فعل قبيح يظن أنه ينكتم عن الناس ، حتى لا يقف عليه أحد (١) .

ويجب أن يعلم أن الناس بالطبع موكلون بتتبع عيوب الناس : وتعييرهم بها ، وذلك فى الناس غريزة ، والسبب فيه أن الإنسان ما لم يبلغ التمام ، فليس يخلو من تقصير يعاب به ، ويسوؤه أن يكون غيره أفضل منه ، فهو يسر أن يكون الناس كلهم نقصاء ، ليساووه فى النقص ، ويخلوا دونه ، فهو أبدا يتتبع معايب الناس ، ويعيرهم بها ، ليرى الناس أنه أفضل ممن فيه ذلك العيب ، ويشعر نفسه أيضا ذلك ، لتطيب بما فيها من العيوب .

فليس شىء من العيوب يخاف عن الناس ، وإن اعتمد ستره .

وقد يظن كثير من الملوك والرؤساء : أن عيوبهم مستورة عن الناس ، غير بادية ، وذلك لموضع هيبتهم ، وعظم سطوتهم ، يستشعرون أن حاشيتهم وخواصهم لا يجسرون على إظهار أسرارهم ان وقفوا على شىء منها ، وهذا نهاية الغلط ، لأن خواص الملك وحاشيته ، كما أنهم عنده ثقاة أمناء ، كذلك لكل

---

(١) مصداق ذلك قول رسول الله ﷺ : « لو ان أحدكم يعمل فى صخرة صماء ، ليس لها باب ولا كوة ، لأخرج عمله للناس كائنا من كان » رواه الامام احمد ، وابو يعلى ، وابن حبان ، والحاكم .

واحد منهم خاص وثقة يخرج إليه بأسراره ، والذى لا يستر أسرار نفسه ، فمحال أن يستر أسراره غيره (١) .

وهذا الحال : طريقة إلى انتشار معايب الملوك ، الذين يظنون أنها مستورة

والعلة فى ظنهم أنها مستورة هو : أنهم لا يسمعون أحدا يذكرها ، ولا أحدا يتنصح إليهم بها ، فيظنون أنها خفية .

فإذا أحب الإنسان أن يعلم أن عيوبه غير خافية ، فليعد إلى نفسه ، ولينظر : هل يعرف لأحد عيبا كان يستره ويخفيه ، فإنه يجد للناس عنده عيوبا كثيرة قد اجتهدوا فى سترها ، وحرصوا على صونها .

ومنهم من يظن أنها خفية .

ومنهم من يعلم : أنها قد انتشرت بعد الستر .

فإذا علم أنه عارف بأسرار كثير من الناس كانت مستورة ، فمن الواجب أن يعتقد أن عيبه غير خاف ، ولا منكتم ، وأن الناس يعرفون من عيوبه أكثر مما يعرف من عيوبهم .

فينبغى لمحب الكمال : أن يعتقد أن عيوبه ظاهرة ، وإن اجتهد فى إخفائها ، وليس بتام من عرف له عيب ، ولا طريق إلى التمام إلا باجتناب العيوب بالكلية ، والتمسك بالفضائل فى سائر الأمور .

وهذه الرتبة غاية تمام الإنسانية ، ونهاية الفضيلة البشرية ، وواجب على كل انسان : الاجتهاد فى بلوغها ، واستفراغ الوسع

---

(١) اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه
فصدر الذى يستودع السر اضيق

فى الوصول إليها ، لأن التمام مطلوب لذاته ، والنقص مكروه لعينه .

وأحق الناس بطلب هذه الرتبة ، وأولاهم بالتحمل لبلوغ هذه المنزلة : الملوك والرؤساء ، واشراف النـاس ، وأعظمهم قدرا .

وما أقبح بالشريف العظيم أن يكون ناقصا .

فالملوك اذا ينبغى أن يكـون اشد الناس حرصـا على بلوغ الكمال ، لأن الكامل من الناس ، الجامع للفضائل : مترتب بالطبع على الناقص من الناس .

فالإنسان التام : رئيس بالطبع .

وإذا كان الملك تاما جامعا لمحاسن الأخلاق ، محيطا بجميع المناقب ، كان ملكا بالطبع .

واذا كان ناقصا كان ملكا بالقهر .

وما أولى بالملك : أن يرغب فى الرياسـة الحقيقيـة التى لا تكون بالقهر والشرف الذاتى ، لا ما هو بالوضع .

فالواجب : أن يصرف الملك همته إلى اكتساب الفضـائل ، واقتناء المحاسن ، ويطلب الغاية فى المكارم ، ويستصغر الكبير منها ، حتى يحوز جميعها ، ولا يرضى بالنهاية ، حتى يزيـد عليها .

فإنه إن رضى برتبة فوقها رتبة لم يصل أبدا إلى التمام .

وان أبعد الناس من التمام : من رضى لنفسه بالنقصان .

فإذا طلب الملك الكمال ، فأول ما يجب أن يعتاد : عظم الهمة ، فان عظم الهمة يصغر فى عينه كل رذيلة ، ويحسن له كل فضـيلة .

واذا عظمت همة الملك سلم من الاعجـــــاب بملكه ، ورأى نفسه وهمته : أعظم قدرا من أن يستكبر ذلك الملك ٠

واذا احتقر الملك ملكه الذى به عزه وعظمته ، طلب لنفسه ما يعظمها بالحقيقة ، وليس يعظم النفس الا الفضائل ٠

ثم : ينبغى له أن يكـــره الملق (١) ، ويبغض المتملقين ، وينهاهم عن تلقيه به ٠

وملاك أمره : أن يتعرف عيوبه حتى يمكنه توقيهـا والتحرز منها ، وهذا فى الملوك صعب ، لأن الانسان بالطبع يخفى عليـه كثير من عيوبه ٠

فالذى يخفى على الملوك أكثر لإعجابهم بمحاسنهم ، وعظم مرتبتهم ٠

وأيضا فإن الرعية والسوقة ، يبكتون بعيوبهم ، ويعيرون بها ، فهم يعرفونها ٠

والملوك : لا يجسر أحد على تبكيتهم ، فلا يقدم أحد على تبكيتهم على عيوبهم ، لأن الناس أجمع : يقصدون التقرب إلى الملوك بملقهم ، فلا يقولون لهم الا ما يحبون ، لينالوا الحظـــوة عندهم ٠

فعيوب الملوك أبدا خفية عنهم ٠

وينبغى للملك إذا أحب أن يتنزه من العيوب ، ويتطهـر من دنسها : أن يتقدم إلى خواصه وثقاته ، ومن كان يسـكن إلى عقله وفطنته من خدمه وحاشيته ، فيأمرهم أن يتفقـدوا عيوبه ، ونقائصه ، ويطلعوه عليها ، ويعلموه بها ٠

---

(١) بفتح الميم واللام : النفاق ، واظهار غير ما يخفى ٠

وينبغى له أيضا : أن يتلقى من يهدى إليه شيئا من عيوبه بالبشر والقبول ، ويظهر له الفرح والسرور بما أطلعه عليه .

بل المستحسن منه : أن يجيز (١) الذى يوافقه على عيوبه أكثر مما يجيز المادح له على نقصه ، ويتحمل لومته على فعله ، فانه اذا لزم هذه الطريقة ، وعرف بها : أسرع أصحابه وخواصه الى تنبيهه على عيوبه ، واذا نبه على ما فيه من النقص : أنف منه ، واستشعر أولا أن سيعيرونه به ، ويصغرونه من أجله ، ويلزمه حينئذ أن يأخذ نفسه بالتنزه من العيوب ، ويقهرها على التخلص من دنسها ، فإذا فعل ذلك ، وتوفر على اقتناء الفضائل ، وألزم نفسه التخلق بالمحاسن ، ولم يرض من منقبة (٢) الا بغايتها (٣) ، ولم يقف واجتهد فيما يحسن سياسة نفسه عاجلا ويبقى له الذكر الجميل آجلا ، لم يلبث أن يبلغ الغاية من التمام ، ويرتقى إلى النهاية من الكمال ، فيحوز السعادة والإنسانية والرياسة الحقيقية ، ويبقى له حسن الثناء مؤبدا (٤) وجميل الذكر مخلدا .

. . . .

فقد أتينا على صفة الانسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق والطريق التى تؤديه الى هذه الرتبة ، وتحفظ عليه هذه المنزلة .

---

(١) يجيز : يعنى يعطيه جائزة .
(٢) أى فضيلة من الفضائل .
(٣) الغاية : نهاية المقصود .
(٤) أى مدة حياته وبعد مماته .

وقدمنا : ما يجب تقديمه من « سياسة الأخـــلاق وتهذيب النفوس » : فما أولى من نظر فى هذا القول وتصفحه ، وفهـم مضمونه وتدبره : أن يأخذ نفسه باســتعمال ما بين فصــوله ، ويسوس أخلاقه مما يتطرق الى الذى قنن (١) فى تضــاعيفه ، ويجتهد كل الاجتهاد فى تكميل نفسه ، ويستغرق غاية الوســع فى طلب تمامه ، فما أقبح النقص بالقادر على التمام ، والعجز من المستعد لنيل الكمال » .

وهذا حين نختم القول بـ « تهذيب الأخلاق » .

والحمد لله .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه .

. . . .

(١) قنن : أى وضع قوانين يعمل بها الناس .

فهرست

رقم الايداع بدار الكتب

٨٦/٧٩٠٥

الترقيم الدولى ٤ ـ ٢٠ ـ ١٤١٥ ـ ٩٧٧

من احـدث مطبـــوعات :

مكتبة عالم الفكر

الأنوار

فيما يمنح صاحب الخلوة من أسرار

لابن عربي

الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر سيدي
محي الدين بن عربي الحاتمي الطائي

حققه وقـدم له وصححه
عبد الرحمن حسن محمـود
عفـا اللـه عنـه